حلم السيدة العجوز

(مجبورة)

اســـم الكتـــــاب: حلــــم الســــيدة العجــــوز

التـأليـــــــف: أحمـــــد إبـــراهيم مكـــاوي

نـــوع العمـــل: روايـــــــــــــــــــــة

مراجعـة وإخـراج فنـي: ســـالم عبـــد المعـــز ســـواح

رقـــم الإيـــداع: 23567 / 2022

الترقـــيم الـــدولي: 978-977-835-328-0

الناشـــــــــــر: دار زحمة كُتّاب للنشر والتوزيع

٤ ش بديع خيري متفرع من ش عبد الحميد بدوي خلف كنتاكي نادي الشمس مصر الجديدة - مصر.

دار زحمة كتاب للنشر Facebook

Email za7ma.kotab@gmail.com

Tel 002 01205100596

002 01100662595

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

لدار زحمة كُتّاب للنشر

لا يحق لأي جهة طبع أو نسخ أو بيع هذه المادة بأي شكل من الأشكال ومن يفعل ذلك يعرض نفسه للمساءلة القانونية

حلم السيدة العجوز

(مجبورة)

رواية

د. أحمد إبراهيم مكاوي

السلام عليك أيها الإله الأعظم إله الحق

لقد جئتك يا إلهي خاضعًا لأشهد جلالك

جئتك يا إلهي متحليًا بالحق، متخليًا عن الباطل

فلم أظلم أحدًا أو أسلك سبيل الضالين

(نص فرعوني.. كتاب الموتى)

(١)

الكاهن

التاريخ :٢١٥٠ قبل ميلاد المسيح

المكان: المعبد الكبير بمدينة أهناس

الليل قد أشرف على ثلثه الأخير ولا يزال الظلام حالكًا، والصمت يلف المكان كله..

يسير رجلان حليقا الرأس بخطوات سريعة، وقد أمسك أحدهما بمشعل في يده وهو يتلفت حوله في قلقٍ ملحوظ، كانا يرتديان ثيابًا كتانيةً بيضاء اللون وأحذية مصنوعة من ورق البردي، ويرتدي أكبرهما ذلك الوشاح المميز للكهنة المرتلين (غرى حب)

الأول هو الكاهن (رع ور) كبير الكهنة المرتلين والمشرف الأبرز على عمل الرقى والتعاويذ، والآخر الذي يحمل المشعل فهو تلميذه المقرب وكاتم أسراره (شيماي)..

- "لتسرع يا سيدي؛ فجنود الفرعون سيكونون هنا في أي لحظة".

قالها (شيماي) وهو يحث معلمه على الإسراع وقد بدا الخوف جليًّا على وجهه، فيما اكتفى معلمه بهز رأسه، وصوت أنفاسه اللاهثة يحكي معاناته ليلتفت إليه وهو يقول في إشفاق:

- كان من الأفضل الابتعاد عن ذلك الأمر الخطير.

سحب نفسًا عميقًا وزفره في صعوبةٍ مغمغًا:

- لا بد من المحاولة، طفح الكيل والأمور تزداد سوءًا.

- هل فكرت في طلب الوساطة من الكاهن الأكبر (حم نثر)؟؟

- فات الأوان.

- طلبتها ورفض؟

هز رأسه نافيًا فتابع (شيماي):

- هو يحبك وله حظوة وكلمة مسموعة لدى الفرعون.

- لا أعتقد إنه يستطيع عمل شيء، عندما يتعلق الأمر بحياة (أخنوي) فالجميع يفضل الابتعاد والصمت..

قالها وهو يتذكر مقابلته الأخيرة مع الكاهن الأكبر، حينما استدعاه الكاهن إلى غرفته الخاصة فدخل وهو يقبل الأرض بين يديه، لكن الأخير لم يأبه واكتفى بهز رأسه وقد وضع يده خلف ظهره.

ساد الصمت لثوانٍ مرت على (رع ور) كالدهر، قبل أن ينظر إليه الكاهن في تمعن وبغضب مكتوم:

- هل صحيح ما سمعته عن تدنيسك معبدنا وتدنيس يدك؟

عقد حاجبيه بدهشة بدت مصطنعة:

- لا أفهم عما تتحدث أيها المبجل.

بصرامة وبلهجة حادة:

- ألم تشارك في تلك المؤامرة مستخدمًا السحر الشيطاني رغم معرفتك بمخالفة ذلك لتعاليم الكهنوت!! ومن تريد أن تؤذي؟ الفرعون!

لم يرد فأكمل الكاهن الأكبر في ثورة:

- أفقدت عقلك؟!

- تحتم عليّ فعل ذلك.

- فعل طائش لم أتوقع صدوره منك.

سحب نفسًا وزفره في حرارة متابعًا:

- ألا تعلم مصير من يثبت عليه ذلك الأمر؟

ابتلع (رع ور) ريقه في صعوبة:

- أعلم يا سيدي، لكنك ترى أحوال الناس وانتشار الظلم والفحش في طول البلاد وعرضها، فهل يرضيك هذا؟!

حدجه الكاهن الأكبر بنظرة خاوية ولم يعلق فأكمل:

- عاش (اخنوي) في الأرض فسادًا وكوّن حوله طبقة من المنتفعين الذين نهبوا الذهب والخيرات حتى أحجم الفلاحون عن الزراعة خوفًا من قطاع الطرق والمجرمين، ترك البدو بلا حساب وأطلق أيديهم بلا رقيب حتى احتل أهل الصحراء مكان المصريين، هل رأيت يا سيدي التماسيح وقد أصابتها التخمة من

كثرة الموتى؟! هل رأيت حفاري القبور الذين يعملون ليل نهار؟! هل رأيت الوجه القبلي وقد أصبح صحراء جرداء؟!! أعرف نزاهتك يا سيدي وأعلم رفضك لذلك، لم أقترف ذنبًا وإنما حاولت إيقاف ذلك المتجبر، فهل ترى ما فعلته أمرًا مذمومًا؟

طالعه بحزن:

- الأمور لا تحل بتلك الطريقة، فما فعلته رغم نواياك الطيبة لا يزال عبثًا طائشًا، والإله وحده يعلم إلى ماذا سينتهي ذلك الأمر، وما هي تبعاته على المعبد وكهنته.

- أتحمل المسئولية كاملة.

- لن يصدق الفرعون أننا بعيدون عن الأحداث، وسينالنا بعضٌ من التنكيل شئنا أم أبينا.

تحرك خطوتين وشرد في تفكير:

- الحاشية تكرهنا، والمنتفعون كالضباع يريدون افتراسنا، وسيستغلون ذلك الحدث بلا ريب حتى يتخلصوا منا.

- لم أتعمد ذلك، أنتم أهلي ولم أر....

قاطعه بحدة:

- دعنا لا نضيع الوقت في ذلك الحديث الذي لا طائل منه، ولنشرع في معالجة الأمر.

- رهن أمرك يا سيدي.

خفض الكاهن الأكبر صوته واقترب من (رع ور) وهو يهمس في أذنه:

- علمت من مصادري داخل القصر أن الفرعون علم بتفاصيل تلك المؤامرة.

امتقع وجه (رع ور) في شدة، وحبات العرق تغمر جبينه وعلا تنفسه قائلًا:

- وما الذي عليّ فعله؟

قطب الكاهن الأكبر جبينه في تركيز وأكمل:

- أرسل في طلبك، وجنوده سيكونون هنا في أي لحظة، وكلانا يعلم بالطبع العقاب الذي ينتظرك.

ثم استدرك بحزم:

- لكني لن أدع ذلك يحدث.
- سأعترف أنها غلطتي وليكن ما يكون.
- لا أريد رؤيتك تعدم فيوصم بها كهنة المعبد كلهم.
- أتطلب مني الهرب يا سيدي؟؟؟
- لا مفر من ذلك.

أحنى رأسه وهمس في احترام:

- أنفذ أوامرك على رقبتي.

بنظرة ذات مغزى:

- من الجيد أنك كنت مستعدًا لهذا.

اعتلت الدهشة وجه (رع ور) لكنه حاول إخفاءها سريعًا فتابع الكاهن الأكبر:

- نما إلى علمي أنك جهزت مقبرتك بمكان خفي، واخترت تلميذك (شيماي) ليساعدك في هذا، ولقنته التعاويذ التي تحميك من انتهاك الفرعون إذا استطاع العثور عليها، أليس كذلك؟؟؟

تفاجأ (رع ور) بمعرفة الكاهن لسره الأكبر، لكنه لم يجفل لعلمه أن الكاهن يحبه ويقدره، وما اختار إخفاء الأمر عليه من البداية إلا خوفًا من أن يتورط فيما لا ذنب له، لكن ها هو ذا وقد أحاط علمًا بالأمر ولا جدوى من المراوغة فقال في استسلام:

- نعم يا سيدي.
- إذًا فلتسرع وتقرر مصيرك، قبل أن تتقطع أوصالك وتضيع في العالم الآخر.

كان الحوار يتردد في عقل (رع ور) وما زال يحث السير عندما أتاه صوت (شيماي):

- قاربنا على الوصول إلى البحيرة المقدسة يا سيدي..

قالها وهو يشير إلى حوض كبير من الماء تحيطه المشاعل من كل اتجاه..

في تلك اللحظة، وليس بعيدًا عن ذلك المكان، وتحديدًا بالقرب من البوابة الكبيرة للمعبد، كان عشرات الجنود يندفعون مقتحمين المكان بكامل أسلحتهم، لم يأبهوا بنظرات الكهنة المندهشة، ولم يلقوا بالًا لتلك الهمهمات الغاضبة، ولم يثنِهم محاولات الكاهن الأكبر تعطيلهم.

بوجوه صارمة ونظرات قاسية شرعوا في التفتيش بنهم محموم، متابعين البحث في الأروقة والغرف، مبعثرين كل ما تقع عليه أيديهم، كان واضحًا أن الفرعون في ذروة غضبه، ولن يهدأ له بال حتى يظفر بما يريد...

على حافة البحيرة المقدسة أنار (شيماي) المشاعل، وشرع في ملء المبخرة بالبخور وهو يشعلها، فيما خلع (رع ور) حذاءه المصنوع من ورق البردي وقد أخرج حبلًا من طيات ملابسه أعطاه إلى (شيماي) الذي بدأ يجدله في مهارة على شكل عقدة.

رفع رأسه إلى السماء الصافية التي تلونت بلون أرجواني فصنعت لوحة سريالية جميلة، أغلق عينيه في هدوء وبدا أنه يرهف السمع، ثم فتحهما بغتة وهو يتطلع إلى مياه البحيرة الرائقة وقد نثرت عليها الكثير من الزهور وردية اللون..

التفت إلى تلميذه يسأله:

- تعرف ما عليك فعله؟

- لا تقلق يا سيدي فأنا أحفظ دوري عن ظهر قلب.

اعتلت نظرة الشكر على وجهه وهو يربت على كتف تلميذه، ثم سلمه يديه ليقيدهما في إحكام، فعل الأمر نفسه مع قدميه، وراح يتمتم بتعويذة ما حتى انتهى، ليشير إليه برأسه قائلًا:

- ألقاك في العالم الآخر يا (شيماي).

- الوداع يا سيدى.. قالها وهو يدفعه ملقيًا به في الماء..

(٢)

اللعبة

التاريخ: ١٧ يناير٢٠١٧
المكان: مقابر العمود
منتصف الليل..

أقف وحيدًا في ذلك الصقيع، واضعًا يدي في جيب معطفي طلبًا للدفء، ستقول عني أحمقَ ولا عجب في ذلك، فما من عاقلٍ يقف في ذلك المكان وفي هذا الوقت..

الحقيقة أنك لم تقل شيئًا جديدًا، فقد سمعتها مرارًا طوال تلك السنوات، وها أنت ذا ترددها مثلهم، وتقول إنني مجنون متهور.

سأصدقك القول إنني لا أرى نفسي متهورًا..

قد أتفق معك أني لا أمعن التفكير، وإذا قفزتْ فكرة إلى رأسي وراقت لي سارعت إلى تنفيذها دون حساب، لكني سأفشي لك سرًّا ولا تخبر به أحدًا، هذه أحمق فكرة قمت بها على الإطلاق.

- ما الذي أتى به إلى هنا في تلك الليلة السوداء؟

أسمعها تتردد في عقلك، وقد شعرت بالضجر وأنت ترتشف قهوتك مضجعًا على الأريكة..

سامحني يا صديقي فقد حسبتك معي من البداية وتعلم الأمر. لكن لا بأس.. سأروي لك في عجالة كيف بدأت الأحداث، حتى لا تسيء الظن بي..

لماذا تنظر إلي هكذا!!، لا تريدني أن أطيل عليك؟

كن صبورًا ولا تقلق فلست ثرثارًا..

بدأ الأمر منذ يومين، حينما اجتمعتْ رفقة أصدقائي (فوزي) و(حسين) في ضيافة (فؤاد).

(فؤاد) الثري الوسيم، بشعره البني وجسده الرياضي الممشوق حلم الفتيات ومطمع الجميع، أبوه ثري للغاية، وأحد القلة المشار إليها بالبنان، يملك أموالًا لا حصر لها ويضرب بسهم في كل المجالات تقريبًا، ينتمي إلى طبقة الثراء الفاحش،

وزادت شهرته في الآونة الأخيرة بعدما تقلد منصب الرئيس لأحد الأندية الرياضية الشهيرة... لا نعرف بالضبط أسباب ذلك الثراء السريع، ولا نريد أن نعرف....

(فؤاد) هذا كان مشاغبًا كبيرًا، يعشق إثارة المشاكل، ويهوي السخرية والتنمر من كل من حوله. ألحقه أبوه بمدرستنا رغم مقدرته على وضعه بإحدى المدارس التي تدفع مصاريفها بالعملة الخضراء، لكنه رجل عصامي وأراد لولده أن يخشوشن حتى يستطيع متابعة طريقه، والحفاظ على ثروته كما يقول.

ولد بملعقة ذهبية في فمه، ولعلك تعرف ذلك النوع الذي يحضر إلى المدرسة بعربة فارهة بسائق خاص، وحقيبة مكتظة بساندوتشات البرجر وقطع البيتزا التي جلبت خِصّيصَى من فرنسا.

يحسده الطلبة على ملابسه المهندمة وحذائه صاحب العلامة المشهورة بالطبع، وقس على ذلك في كل شيء، لكنه بالرغم من ذلك لم يكن متعاليًا مع أصدقائه، بل كان كريمًا بدرجة لا تصدق وسخيًّا بلا حدود..

تعرفت عليه مبكرًا، واعتدت عليه وعلى خصاله، أصدقاؤنا المقربون يعرفون حمقه ونزقه ويحاولون التعامل معه على حاله، ولا ضير من ذلك فلا أحد منا كاملًا على أية حال، وأنت تصادق صديقك بعيوبه...

ثم هناك (فوزي) ذاك البدين خفيف الظل، الأكثر نهمًا للطعام والأكسل على الإطلاق، يعمل بواحدة من شركات الاتصال الشهيرة بوظيفة الدعم الفني والتقني، أتعرف ذلك الشخص الذي يتلقى اتصالاتك حينما تشكو من ارتفاع الفاتورة أو اختفاء رصيدك بلا مبرر محاولًا فهم السبب الخفي وراء ذلك؟ كان ذلك هو (فوزي)، أو هو واحد منهم إذا أردت الدقة. بصوت ودود وبلهجة لبقة يجيبك في أدب: (فلان الفلاني) في خدمتك يا سيدي. تحكي له مشكلتك في غيظ وتحتد عليه، فيطلب منك الانتظار لمراجعة بياناتك، ويتركك قليلًا حتى يمتص غضبك، في هذا الأثناء سينشغل بالثرثرة مع زميلته القابعة بجواره، وربما أمسك ببعض الأوراق ليصنع منها مراكبَ أو طيورًا ورقية حتى يقطع ملله، ثم يعود إليك وهو يراجع بياناتك المسجلة على جهاز الحاسوب خاصته، يكرر فعل ذلك

عدة مرات، حتى يصيبك الإحباط وتندم أشد الندم على اتصالك، وبعد فترة يشفق عليك وبصوت حازم يقول:

- توصلت إلى المشكلة يا سيدي.

تصمت في ترقب ليتابع:

- تم سحب مبلغ كذا من رصيدك لاستخدامك خدمة النغمات السرية.

ساعتها يبدأ غضبك بالازدياد، وأنت تقسم له بأغلظ الأيمان أنك لا تعلم شيئًا عن تلك الخدمة، وأن هذه هي المرة الأولى التي تسمع عنها، يخبرك بلسان المشفق الناصح أنه لا يستطيع عمل شيء فيما مضى، فالأمر كله مسجل على نظام الكمبيوتر لديه ولا يستطيع التدخل فيه، يعطيك وعدًا بإيقاف تلك الخدمة في المستقبل، حال دفعك الاستحقاقات القديمة حتى يتمكن من تفعيل ذلك.....

تلك الوظيفة مناسبة له بحق، وكأنما حيكت على مقاسه، فهو لا يبذل أي مجهود بدني، كما أنه مناسب لها بلباقته وخفة ظله، والتي تمكنه من حل المشاكل ومعالجة الأمور..

الثالث (حسين)، الصيدلي هادئ الطباع لطيف المعشر مهذب الأخلاق. من النوع الذي تعتمد عليه، ويجتمع على حبه الجميع، على طرف النقيض من (فؤاد)، ولذا لم يسلم اجتماعهما من التشاكس الدائم والتناحر المستمر، لكنه اختلاف محبة وتناحر حب وصداقة..

ثم أخيرًا أنا،

(شريف) ...

تعلم الآن أن اسمي (شريف)، وأنت شديد الملاحظة فيما يبدو.. تخرجت في كلية التجارة منذ عامين، وأعمل بإحدى الشركات الخاصة، أبي موظف بأحد البنوك، وأمي ربة منزل، وأملك من الأخوة أخًا وأختًا....

- هذا الجو مثالي للاستلقاء والنوم.

قالها (فوزي) وهو يقضم قضمة من شطيرة الشاورما خاصته ويطالعها في لهفة وقد اتسعت عيناه في تلذذ ملحوظ، ثم أردف في استدراك:

- بعد الانتهاء من الطعام بالطبع.

(فؤاد) مبتسمًا في سخرية:

- أتلقي بالًا لهذا الجو؟ ستفعل ذلك على الدوام، فمثلك يحتاج إلى البيات الشتوي أيها الدب.

لم يأبه بالرد واكتفى بهز رأسه، وقد انشغل تمامًا بافتراس الطعام.

ليتابع (فؤاد) في تهكم:

- بيات صيفي وشتوي.

ابتسم (فوزي) ورفع رأسه وهو يلوك الطعام:

- ليتني كنت دبًّا، حتى أقضي حياتي بين الأكل والنوم.

- يا لحظي العاثر، أنا محاط بثلة من الكسالى عديمي الفائدة.

غمغم (حسين) في امتعاض ردًّا على نبرة (فؤاد) الساخرة:

- لا تهول الأمر، هكذا هي ليالي الشتاء، نصفها أكل ونصفها نوم.

تدخلتُ قائلًا لتهدئة الأجواء:

- أتفق معك في هذا، ولا تنسَ أننا ملوك الصيف، سيوة وسيدي براني ومرسي علم و......

قاطعني (فؤاد) ونبرة التهكم لم تفارقه:

- وشلالات نياجرا، وغابات الأمازون، وجبال الألب، لا تزوّر التاريخ يا هذا فما زلنا أحياء.

- لا تنكر تلك الحقائق.

- لا تدعني أتكلم وتثير نقمتي أيها الكاذب، كنتم تنامون اليوم كله وكأنكم على وشك الولادة...

قالها وهو يشير إلى بطنه كالانتفاخ وأخذ يقهقه بصوتٍ عالٍ فيما نظر إلي (حسين) في عتاب:

- ستفتح علينا بابًا من السخرية لا ينتهي، ولن يسلم أحدٌ منا من لسانه.

- انظروا من يتكلم!!

- تحديتك على النزول للبحر ليلًا، ولم تجسر على فعل ذلك.

- لم تكن جادًّا.

- وما الذي أوحى لك بهذا؟

- أعرفك وأعرف أنك كلام بلا فعل.

- أنت تتهرب، لنفعلها الآن، هيا بنا وليكونوا شهودًا علينا.

- اذهبوا وافعلوا ما شئتم فأحلامي الساعة تنحصر في كوب من الشوكولاتة الساخنة وشطيرة أخرى من تلك الشاورما والإصدار الأخير من لعبة الفيفا..

قالها (فوزي) في كسل...

تدخلتُ مقترحًا:

- دعكم من هذا التناحر أيها السادة، ما رأيكم بأن ننزل لنتمشى قليلا، نحتسي فنجانًا من القهوة على الشاطئ، الشوارع خالية وليل الإسكندرية يطرب.

وأردفتُ:

- المقهى الجديد على الكورنيش يمتلك منظرًا رائعًا للبحر.

تثاءبَ (فوزي) في كسل بعدما سمع اقتراحي، وقد أمسك بإحدى الوسائد ووضع رأسه عليها وهو يتظاهر بالنوم..

(فؤاد) أيضًا لم يتحمس لذلك الاقتراح قائلًا:

- سكتّ دهرًا ونطقت كفرًا في النهاية، البرد قارس، وأرى أن نستمتع بالدفء، ونجعل أمر القهوة ذلك في يوم آخر.

وتابع:

- ثم إنني جمعتكم لأمر آخر؛ لقد جهزت لكم مفاجأة لكسر ذلك الملل،

وأعتقد أنها ستسعدكم، وستكون مختلفة.

قالها ولم يدرِ أنه كان محقًّا ....محقًّا للغاية

تنبهت حواسنا ونحن نتطلع إليه في اهتمام ليكمل:

- أحضرت لكم لعبة مميزةً وخاصةً، ولن تجدوا مثيلًا لها في كل الألعاب التي تعرفونها.

ساد الصمت قليلًا ليتابع:

- لم أستطع تجربتها لأنها تلعب بأربعة أشخاص، ووعدني صاحبها أنها ستكون مختلفة ولن أنساها.

- وما وجه اختلافها؟

- لا أعلم تحديدًا، لكننا سنعرف بعدما نشرع في تجربتها، متحمس جدًّا لذلك.

- لا أفهم سبب تحمسك، فمن الوارد أن تكون مملة ساذجة.

- لن تقول ذلك إذا تعرفت على صاحبها الغامض مثلما فعلت.

(حسين) بنفاد صبر:

- لنتوقف قليلًا عن الكلام والسفسطة أيها القوم، وندعها تخبرنا عن نفسها.

ثم توجه بالكلام إلى (فؤاد):

- كلنا آذان مُصغية.

- لها شروط، وشرطها الأهم أن تلعب في ليلة من الليالي السوداء.

كررت اللفظ خلفه في استفهام:

- الليالي السوداء؟

سكت برهة، في محاولة لإضفاء جوًّا من الإثارة والتشويق وتابع:

- كنت جاهلًا مثلكم حتى شرح لي صاحبها.

كان الفضول يلتهمنا ونحن نتطلع إليه في اهتمام وهو يكمل:

- الليالي الأخيرة في الشهور العربية بفصل الشتاء، حيث يختفي القمر ويشتد الظلام والبرد.

ثم تابع وهو يشير بيده بطريقة مسرحية:

- والليلة واحدة من تلك الليالي، ولذا اخترت أن نلعبها اليوم..

قال ذلك وهو يتطلع إلينا ليراقب وقع كلامه..

(فوزي) متحيرًا:

- الأمر يشوبه بعض الغموض.

(حسين) في حذر:

- نريد أن نعرف أكثر، حتى نستطيع الحكم عليها.

أخذ (فؤاد) نفسًا عميقًا وزفره في قوة:

- أتذكر تلك اللعبة التي كنا نلعبها ونحن صغار، والتي تنتهي بأن يصدر الفائز أحكامًا على المنهزم؟

هز(حسين) رأسه بالإيجاب فأكمل (فؤاد):

- هذه قريبة جدًّا من ذلك، لكن اللعبة هي من تحدد الخاسر، وهي من تختار الحكم عليه، ولا بد من تنفيذ الحكم المطلوب أيًّا كان.

- أوافق على أي حكم بشرط أن يكون في محيط هذه الغرفة..

قالها (فوزي)

كنت أراقب ما يحدث في صمت قبل أن يوجه (حسين) كلامه إليّ معاتبًا:

- أيها الحكيم البوذي الصامت!!

- أنا معكم، أحاول استيعاب الأمر.

- ورأيك؟

- لا مانع لدي طالما أردتم ذلك، لن نخسر شيئًا، ولعلها تكون لعبة شيقة وتكسر عنا حالة الملل التي تحوطنا.

قلتها في شك، فأنا أعلم أن (فؤاد) أراد أن يثير فضولنا بتلك اللعبة، والحقيقة أنه فعل.

ما هذه اللعبة؟ ما تلك الشروط الغامضة؟ كيف ستكون أحكامها؟

هل ستكون واحدة من تلك الألعاب السمجة التي تضيع الوقت؟؟

كنت غارقًا في التساؤلات، حينما سمعت ذلك الصوت المميز لبرنامج التشغيل (الويندوز) يعلن أن الجهاز قد أصبح جاهزًا للعمل...

تعلقت أبصارنا بالشاشة، و(فؤاد) يعبث بأزرار الجهاز باحثًا عن أيقونة اللعبة زرقاء اللون التي ظهرت سريعًا، ضغط عليها فبدأت التحميل وقد احتلت خلفيتها كامل الشاشة...

لم أرَ تلك اللعبة من قبل، رغم متابعتي الجيدة لمعظم الألعاب، ويبدو أنها ستكون مميزة وخاصة كما قال (فؤاد).

الأيقونة غريبة نوعًا، فهي مربعات متداخلة بداخلها رموز تجمعها دائرة كبيرة وأرقام وحروف غير مفهومة، ولا أدري لما شعرت بعدم الراحة لرؤيتها، وربما وقع أنها مجهولة ولا تحمل اسمًا ترك عندي ذلك الانطباع المقبض....

- أريد أن أعرف اسم تلك اللعبة يا (فؤاد)، لأبحث عنها في حال أعجبتني وأردت أن ألعبها ثانية.

- لا أعرف اسمها، حتى إنه لا يوجد لها ملف أصلى، حصلت فقط على أيقونة التشغيل تلك.

شعرت بالتوتر يعتريني فقلت لنفسي محاولًا تهدئتها:

- لعبة لا أكثر، وإذا حدث ما يثير القلق فما علينا إلا إغلاقها وانتهى الأمر.

كان تحميل اللعبة قد انتهى لتظهر على الشاشة وبلغة عربية كلمة (أهلًا بكم)

ظهرت تحتها كلمة (إرشادات اللعبة)، وقد اصطفت أسفلها بعض السطور التي تشرح طريقة اللعب..

الإرشادات تشير إلى أنها تتكون من خمسة أسئلة، وسيتم تقسيم اللاعبين الأربعة إلى فريقين.

تتابعت الشروط بملاحظتين غريبتين؛ أولهما: أنه يجب عليك قول الصدق، وإلا ستدرك اللعبة أنك تكذب وتحكم عليك بالخسارة، وثانيهما: أن عليك طاعة

الأحكام أيًّا كانت، بلا مناقشة أو تردد.......

تراصت أسفل تلك السطور أربعة من علامات الميكرفون الصوتي، ليقول (فؤاد) وهو يضرب رأسه بيده كمن تذكر:

- نسيت أن أخبركم، لا بد من تسجيل أصواتكم بالموافقة على شروط اللعبة، وتلاوة صيغة الموافقة.

ثم أخرج من جيبه ورقة مكتوب فيها نص الموافقة الذي علينا جميعا أن نقوله...

بدأ (فؤاد) بترديده، وأعطى الورقة إلى (فوزي) الذي فعل مثله، ثم (حسين)، ثم جاء دوري، فأمسكت الورقة وأنا أضغط العلامة الرابعة وأبدأ في القراءة

الصدق مقولتي ...، والطاعة دوائي.....، والعقاب دائمًا لمن يخالف.....

انتهيت من قراءتها لتظهر على الشاشة كلمة (الفريق الأول)، وليظهر تحتها فراغان متجاوران لتسجيل الأسماء لكل فريق...

بالطبع بت تدرك الآن أن (حسين) و(فؤاد) لا يمكن أن يجتمعا في فريق واحد، وإلا أضعنا الوقت الكثير في محاولة الفصل بينهما.

انتهينا إلى أن (فؤاد) و(فوزي) في فريق، وأنا و(حسين) في فريق آخر، قمنا بتدوين ذلك بالفراغات، لتظهر على الشاشة كلمة (بداية اللعبة) وقد صحبتها موسيقى جنائزية كئيبة الإيقاع، أضفت علينا مزيدًا من التوتر والقلق...

*****

(٣)

السؤال

زال التوتر والتحفز بعد السؤالين الأول والثاني، فقد كانا سؤالين بسيطين، ولا يوجد من لا يعرف اسم أمه وتاريخ ميلاده..

تسرب الشعور بخيبة الأمل، وفيما يبدو أننا أضعنا وقتنا مع تلك اللعبة المملة.

- ما هذه الحماقة؟

قلتها في سخرية، وأنا أشير بيدي إلى شاشة الكمبيوتر

وافقني (فوزي):

- يبدو أننا أعطيناها وقتًا وحجمًا أكبر مما تبدو، لا أخفيك سرًّا أنني شعرت ببعض الغموض حينما سمعت شروطها.

- توقعتها أفضل من ذلك، ولكن لنتابع باقي الأسئلة فلربما تحسنت.

- لعبة أطفال لا أكثر، وبهذه الطريقة ستحكم على الخاسر بالنوم مبكرًا بعد شرب كوبٍ كاملٍ من اللبن الدافئ.

عادت تلك الموسيقى الجنائزية للعمل، ونحن نتابع الشاشة وقد كتب عليها (السؤال الثالث)..

كان السؤال قد ظهر على الشاشة، لنتبادل النظرات في توتر، وليصرخ (حسين) في غضب وهو يشير بيده إلى الشاشة:

- ما هذا الهراء؟!!!

ثم أكمل:

- ألا تكتفي يا (فؤاد) من هذا العبث؟؟

ألم ينتهِ هذا الأمر، واتفقنا ألا نتحدث فيه ثانية؟

نظر إليه (فؤاد) في ذهول، وقد ألجمته المفاجأة و(حسين) يكمل:

- هذا الأمر لا يعرفه أحدٌ سوانا نحن الأربعة، ولا بد أنك أخبرت صديقك بهذا ليضعه في اللعبة وتسخر منا، الأمر يبدو مكشوفًا وسخيفًا.

- ما الذي تقوله يا هذا؟!! هل تعتقد أني أفعل ذلك كله لأصنع بكم مقلبًا، فقدت عقلك وصرت تهرف بما لا تعرف.

تدخلت محاولًا تهدئة الأمور:

- لا داعي للشجار الآن، ولننتهِ من ذلك الأمر ونوقفه، فلا شيء يستدعي الاستمرار فيه.

توجهت بكلامي إلى (حسين) وقد نفرت عروقه غضبًا:

- لا أعتقد أن (فؤاد) سيصنع لعبة ليضحك علينا، وهو يدرك أننا سنعلم انه أول من سيلقي عليه اللوم.

قاطعني (فؤاد):

- لست بهذه السذاجة وتعلمون ذلك، ثم إنني كنت شريكًا معكم، وأعلم أن الأمر ليس مدعاة للسخرية.

أطرق (حسين) برأسه إلى الأرض، وهو يعبث بشاربه وقد بدا عليه التفكير.

والحقيقة أن كلام (فؤاد) كان صحيحًا هذه المرة....

- لنغلق هذه اللعبة ونكتفي ب.......

قبل أن أكمل كلمتي انقطعت الكهرباء بغتة ليسود الظلام الغرفة، إلا من ضوء خافت ينفذ إلينا من الشارع.

لفحتنا حرارة غريبة دامت لثانيتين شعر بها الجميع، وخيل إلي أنني أرى عيونًا تلمع في الظلام في الركن المقابل.

سرت قشعريرة باردة في جسدي، أخرجت هاتفي المحمول لإضاءة

الكشاف، ولم أرد إثارة فزعهم فقلت أطمئن نفسي وأ طمئنهم:

- هذا ليس الوقت المثالي لقطع الكهرباء.

- الكهرباء تعمل بالخارج.

قالها (فوزي) وهو يشير إلى النافذة، حيث المنازل حولنا مضاءة بشكل كامل،

ساد التوتر ولفحنا تيار هوائي ساخن لا نعرف مصدره، ليغلق ضلفتي النافذة في قوة، وتظلم الغرفة تمامًا.

كان الجميع يتظاهرون بالتماسك، وقد فضحتهم أصواتهم المرتعشة وأنفاسهم اللاهثة...

بلا مقدمات أضيئت الشاشة بشكل منفرد، بلا تدخل منا، وقد عادت تلك الموسيقى الكئيبة للعمل من جديد.

قبل أن ينبس أحدنا ببنت شفة، بدأت اللعبة تبث مقطعًا مصورًا على الشاشة...

الصورة معتمة قليلًا، وكأنك تصور بكاميرا رديئة الجودة في الوضع الليلي، حيث الإضاءة الضعيفة تغمر المكان.

اقتربت من الشاشة في حذر لتتسع عيناي في ارتياع،، ارتياع مصدره أنها كانت تظهر بثًا حيًا لنا نحن الأربعة، من داخل الغرفة، ومن زاوية علوية، كمن يراقبنا وقد وضع الكاميرا على السقف..

ارتفع صوت (فوزي) في دهشة:

- ما هذا الهراء؟

في ردة فعل سريعة، اندفع (فؤاد) إلى باب الغرفة محاولًا فتحه، لكنه توقف فجأة وقد أمسك يده وهو يصرخ في ألم ثم سقط على الأرض.

توقفت الموسيقى ليحل محلها صوت استطعت تمييزه، كان صوتًا مجمعًا لنا نحن الأربعة، ونحن نردد في آلية كالمنومين مغناطيسيًّا

الصدق مقولتي.......

والطاعة دوائي.......

والعقاب دائمًا لمن يخالف........

تكرر الصوت أكثر من مرة بنفس الطريقة، قبل أن يعود الضوء فجأة كما انقطع فجأة.....

انكمش (فوزي) في مقعده، بعيون زائغة وهو يوشك على البكاء..

قال (حسين) محاولًا التماسك:

- استهترنا بهذه اللعبة أيها السادة، ومن الواضح أنها لا تمزح.

وزفر في ضيق:

- يبدو أننا تورطنا.

التزم الجميع الصمت فأردف:

- إنها تحذرنا لنلتزم بشروطها، وما زلنا بخير حتى الآن و.......

قاطعته ضحكة شيطانية مصدرها جهاز الكمبيوتر، فتطلعنا إلى الشاشة ذات الخلفية السمراء، وقد كتب عليها بحروف حمراء كالدم النازف:

- الطاعة دواءكم وإلا العقاب لأحبائكم.

امتقعت وجوهنا، وعاد الصمت يلف المكان، ومضت دقيقة كاملة قبل أن أقول وأنا أحاول الحفاظ على رباطة الجأش:

- تلك اللعبة لن تدعنا حتى نكمل ما بدأناه.

وتابعت باقتضاب:

- نحن مجبرون على ذلك.

كان (فؤاد) ما زال جالسًا على الأرض، وقد أسند ظهره إلى الحائط وهو يمسك يده في الم، فاكتفى بهز رأسه في موافقة، فيما اتسعت عينا (فوزي) في هلع ولم ينبس ببنت شفة.

كان جليًّا أننا سنرضخ لقوانين اللعبة، بعدما أدركنا أنه ليس لدينا حلٌّ آخر..

مضى بعض الوقت، فهدأت أنفاسنا ولملمنا شتاتنا، استعدادًا للإجابة على السؤال الثالث الذي أثار حفيظتنا وفجر التوتر والذي كان:

ليحكِ كل فريق منكم من وجهة نظره ما فعلتموه مع عم (فراج).

وعليه فقد بدأ كل فريق في سرد ما حدث........

*****

(٤)

فراج

التاريخ: ١٥ مارس٢٠٠٧

المكان: مدرسة الطبري الاعدادية

كنا طلابا مراهقين في تلك الفترة..

الإعدادية هي بداية انتقالك من الطفولة إلى الشباب، عندما يبدأ شاربك في الظهور على وجهك كخط أسود يشبه السواد الذي يصيب الآنية قبل تلميعها، الحماقة والطيش هما السمة الأبرز لتلك المرحلة، وما زلنا نحتفظ بالكثير منها حتى الآن..

ساعتها تعرفنا على عم (فراج) الذي يعمل فراشًا بتلك المدرسة، ويسكن مع زوجته وأولاده في غرفة ملحقة بها.

واحد من أولئك البسطاء الذين قدموا من القرى للحصول على بعض الجنيهات التي تمنعه من الاستجداء أو طلب حاجته من الناس.

كان طيبًا بشوشًا، تشفق عليه حين تراه وهو ينظف الحمامات، وتحترمه وهو يكنس الفصول في نشاط وهمة..

في وقت الراحة (الفسحة)، يقف في أحد الأركان وهو يحمل كيسًا يحتوي على القليل من شطائر الفول والجبن، التي تصنعها زوجته ليبيعها بسعر زهيد إلى التلاميذ، علها تجلب إليه بعض المساعدة في الانفاق على أسرته.

كنا معتادين على لعب الكرة بفناء المدرسة، لكن ذلك اليوم كان مختلفًا، حينما قام أحدهم بركلها بقوة لتتخطى الفناء وتصطدم بزجاج المكتب الخاص بالناظر في قوة، وتحطمه وهي تصدر صوتًا قويًا.

قررنا الفرار، حينما تناهى إلى أسماعنا الصرخات الغاضبة الصادرة من غرفة الناظر وهمهمات الوعيد من المدرسين الجالسين بمكتبه، ورحنا نركض في كل حدب وصوب، حتى لا يستطيعون الإمساك بنا أو معرفة هويتنا.

الكرة من نوع الميكاسا الشهير، وهي تعود إلى (فوزي)، الذي حصل عليها بعد شهور طويلة من توفير المال.

تجمعنا بالخارج نواسيه بعدما ظل يبكي وينتحب خوفًا من عقاب والده إذا علم بضياع الكرة، حينها خطرت لنا فكرة مجنونة لحل تلك المشكلة، وقررنا أن اليوم سنحصل على الكرة دون أن يشعر أحد.

اعتمدت خطتنا على معرفتنا المسبقة بأن الكرات جميعها تحفظ بغرفة النشاطات، ولذا فقد قررنا دخول المدرسة بعد انتهاء اليوم الدراسي، واقتحام غرفة النشاطات والحصول عليها.

خطة بسيطة سريعة، وكما يقولون في المثل (ولا من شاف ولا من دري)...

اختمرت الفكرة في رؤوسنا وشرعنا في التنفيذ..

الوقت ليلًا ولا قمر في السماء، والإضاءة خافتة حول المدرسة التي تقع في أطراف الحي، وثمة نباح متقطع لكلب ضال يظهر في الخلفية بين الفينة والفينة،

توجهنا للسور الخلفي، واعتلينا الحائط كما اعتدنا، ونحن نتحرك على أطراف أصابعنا، نهتدي بمصباح يدوي صغير كان بحوزتنا..

ستقول عنها مجازفة غير محسوبة لا طائل منها، وربما كنت محقًّا، لكنك تعرف ذلك لأنك شخص ناضج وغالبًا لست بالصف الأول الإعدادي، فهذا أفضل ما توصلنا إليه من حلول، وما اهتدى إليه عقلنا الصغير آنذاك.

تحسسنا الطريق حتى وصلنا إلى تلك الغرفة، ولحسن الحظ فالباب ليس موصدًا، الأغراض مبعثرة في كل مكان كمحل الخردة.

أدوات رياضية، برطمانات لمربى الجزر التي قمنا بصناعتها، أوانٍ فخارية وضع بها بعض النباتات، وشبكة كانت تستخدم للعب الكرة الطائرة في الفناء، لكنهم نزعوها بزعم أنها تعيق المرور، وذلك العلم القديم الذي تم تغييره، وكتب قديمة، وأشياء عدة.

كنا نبحث عن الكرة وسط ذلك الركام من الأغراض والأشياء المختلفة، عندما سمعنا (طاخ.......بوم).

وجهنا الكشاف سريعًا إلى مصدر الصوت، حيث يقف (فوزي) الذي أخذ يهتز في خوف وقد ركز بصره على الأرض وهو يغمغم:

- لم ألمسها. أقسم على ذلك.

على الأرض تقبع علبة الميكروسكوب، وقد سقط الجهاز منها وبدا عليه التضرر الشديد.

صوت تحطمها بدا عاليًا كالانفجار المكتوم، ولذا أخذنا القرار بالانسحاب سريعًا، قبل أن ينكشف أمرنا، لكن حدث ما لم يكن بالحسبان.

فطن عم (فراج) لوجودنا أو سمع صوتًا، ورغم تحركنا بشكل سريع إلا أنه استطاع اللحاق بنا قريبًا من السور، فما كان من (فؤاد) إلا أن التقط قطعة من الخشب وهوى بها على رأس الرجل، حتى نستطيع الفكاك.

سقط مغشيًّا عليه ورأسه ينزف دمًا، إلا أننا لم نتوقف وأسرعنا بالهرب، بعدما تعاهدنا أن تبقى تلك الحادثة طي الكتمان...

لن أقول لك ما حدث بعدها فلا ريب أنك تدرك كيف تسير الأمور في تلك المواقف...

لا بد أنك قد خمنت أن عم (فراج) قد أصبح كبشًا للفداء رغم إصابته، كونه الحلقة الأضعف والمسئول المباشر عن المدرسة، ولم يصدقوا ادعائه بأن أحدًا اعتدى عليه حينما حاول منع هروبه.

انتشرت الإشاعات عن الرجل أنه يؤجر غرف المدرسة ليلًا لمساعدة الشباب المنحرف على تعاطي المخدرات، استدلوا على ذلك بالأجهزة التي كسرت والأغراض التي تم العبث بها في غرفة النشاطات.

بل إن بعضهم تمادى في ظلم الرجل، وادعى بأنه من الممكن أن يكون هو من يبيع المخدرات لأولئك الشباب، وأن الإصابات التي لحقت به سببها خلافٌ نشب بينه وبين شركائه المجرمين...

لا أعلم من أين أتت تلك الادعاءات والافتراءات على الرجل، الكل يعرفه ويعرف أخلاقه، ولكن كما يقولون في المثل إن البقرة حين تقع فستكثر السكاكين عليها.

ترى ماذا يحدث إذا أمسك أحدهم بلص في الطريق ليسارع الجميع بالضرب فيه بلا مبرر بينما يمكنك ببساطة أن تسلمه للشرطة، ولا تشارك في الاعتداء عليه مخالفًا بذلك أبسط قواعد الشرع والأخلاق المروءة كونك تضرب رجلًا أعزل.

وحدنا كنا ندرك أن اتهام الرجل ليس صحيحًا، وأنه المجني عليه، وكنا نستطيع تبرئته بكلمة واحدة، لكننا لم نفعل..

الرجل فقير معدم، لا قريب مهم يحميه أو صديق له يزود عنه، ولذلك كان من السهولة بمكان أن يتم التضحية به.

علمنا بعد ذلك أن الرجل كان سيتم الزج به في السجن، لولا تدخل بعض الأساتذة لدى المدير حتى يتم العفو عنه، لكنه أصر على انتقاله إلى مدرسة نائية في محافظة بعيدة عقابًا له على الإهمال وإتلاف العهدة...

لم نرد حدوث ذلك، لم نسعَ إليه، لم نستطع منعه، لكننا كنا سببًا في إيذاء الرجل وأسرته وجعله يعاني. خاصة أن له ولدًا يعاني الفشل الكلوي، ويستلزم وجوده في المدينة لجلسات الغسيل الأسبوعية بالمستشفى العام ولكن...

ما الذي كان علينا فعله؟؟

هل نذهب إلى إدارة المدرسة ونعترف لها بأننا من فعل ذلك؟

سنقول لهم ببساطة إننا اقتحمنا المدرسة، وكسرنا الجهاز، وعبثنا بمحتويات الغرفة لنسرق الكرة التي كسرنا بها زجاج غرفة الناظر؟! وضربنا الحارس على رأسه حتى سقط مُضَرَّجًا بدمه!

انتابنا الخوف من ضياع مستقبلنا، ولم يتسنَّ لنا الوقت للاعتذار له عن الأذى الذي ألحقناه به وبعائلته وسمعته..

حينما انتهى كل فريق من تسجيل ما حدث بصوته، انطفأت الشاشة تمامًا وأغلق الجهاز..

حاولنا أكثر من مرة إعادة تشغيله ولا مجيب...

خمس من الدقائق مرت علينا كالدهر قبل أن تعاود الشاشة العمل، وتظهر عليها عبارة (السؤال الأخير)..

السؤال الأخير!!

تبادلنا النظرات في حيرة، فهذا هو السؤال الرابع، وقد ذكرت التعليمات أنها خمسة، فما الذي تغير؟!

رغم غرابة الأمر إلا أنني أحسست بالارتياح، فلا بد أن أربعة أسئلة ستكون أفضل من خمسة، خاصة إذا تعلق الأمر بتلك اللعبة الشيطانية..

تعلقت أبصارنا بالشاشة ليظهر السؤال:

ما هو الفعل الأكثر شرًّا الذي قمت به في حياتك؟

تناقش كل فريق لدقائق معدودة، قبل أن يحزم كلّ منا أمره ويختار واحدًا...

حادث الفريق الأول ويحكيه (فؤاد):

- إحدى العاملات الشابات في قسم الحسابات بإحدى شركاتنا كانت (رانيا)،

جميلة كجمال الصباح المشمس بعد ليل ممطر ملبد بالغيوم، نشيطة كالنحلة، وتملك قوامًا تنافس به عارضات الأزياء وفتيات الموضة، كما أنها تحظى بأعذب ابتسامة رأيتها على الإطلاق.

فتنة طاغية تسير على قدمين، غير أنها فقيرة تسكن بحي شعبي، والجميع يعرف أباها عم (ماهر) العامل بهيئة السكك الحديدية.

أما أنا فالشاب الثري صاحب العشرين عامًا، الذي تهتم به الفتيات وتحفل به أينما حل وتلاحقه نظراتهن في كل مكان.

لاحظت اهتمامها وملاحقتها لي كلما ذهبت إلى الشركة، لكني لم أهتم، فهي واحدة من طابور معجبات طويل لا وزن لهم عندي.

مع تكرار الأمر، اكتسبت فضولًا لمعرفة ما تريد، فاصطنعت اهتمامي بها وانجذابي إليها، كان الأمر سهلًا وكانت دومًا رهن الإشارة، هدية مجانية متاحة ولم أرفضها...

تعددت لقاءتنا وارتشفت رحيقها في سعادة، أغدقت عليها بالهدايا الغالية والكلام العاطفي فتوهمت أنها صارت حبيبتي..

في أحد الأيام كررتِ الاتصال بي بلا انقطاع، في البداية لم أرد فعاودت بإلحاح محموم، رددت لأريح رأسي معتقدًا أنها تحتاج مبلغًا من المال أو مساعدةً في إنهاء أحد الأمور المتعلقة.

أتاني صوتها:

- أريد مقابلتك في أمر مهم.

قالتها في اقتضاب وجدية فحاولت تأجيل الأمر، أو التملص متعللًا بانشغالي لكنها كانت مصرة ولم أستطع الفكاك.

قابلتها وحدث ما لم يكن في الحسبان.

لو كنت من متابعي الأعمال الدرامية فأنت تدرك ما خلف هذه المقابلة، تعلم أنها ستخبرني بحملها وأنني لا بد أن أتزوجها، وتعلم أنني تنصلت منها وأمرتها أن تجهض نفسها متعهدًا بدفع كل التكاليف اللازمة، رفضت باستماتة فتجاهلتها وقمت بنهرها وتهديدها، انهارت وبكت وطالبتني بالستر عليها حتى لو كان بورقة عرفية فلم أهتم لكلامها أو حديثها عن إنهاء حياتها قبل أن تجلب العار لأهلها..

تحسبني نذلًا مغرورًا بلا أخلاق أو ضمير؟؟

ربما كنت كذلك لكن ضع نفسك مكاني، شاب صغير وما زالت الحياة أمامي، لست مؤهلًا لتحمل مسئولية زوجة وطفل وكل تلك الأمور المرهقة المزعجة، ثم

إنني لو أردت الزواج فلن أعلق مع تلك الفتاة الفقيرة وعشرات من فتيات الصفوة تتمنى إشارة من يدي..

لا تنظر إلي باحتقار فلم أعدها بالزواج أو الارتباط.

لم أكن أعلم أنها ستنفذ تهديها وتقتل نفسها، أو أن يصاب والدها بجلطة في المخ حزنًا على ابنته.

سكت (فؤاد) هنيهة حين وصل إلى تلك النقطة، وهو يتذكر تلك الأحداث وانسالت دمعة ساخنة على وجنتيه، وتابع في صعوبة بصوت مختنق:

- نعم حدث ذلك، قتلت نفسها خوفًا من الفضيحة، وأصيب والدها بجلطة عندما سمع خبر انتحار ابنته..

طأطأ رأسه وهو يتجاهل النظر في وجوه أصدقائه الذين توسدوا بالصمت المطبق ثم أكمل:

- حزين على ما حدث، ونادم على ذلك أشد الندم، لكن مستقبلي كان على المحك، ولم أعتقد أن الأمور ستصل إلى ذلك.

حاولت التكفير عن ذنبي بالمساعدات الشهرية التي أرسلها لتلك الأسرة، والإنفاق على علاج ذلك الرجل المريض، وما زلت أفعل ذلك حتى اللحظة.

انتهى من سرد قصته وقد وضع وجهه بين كفيه..

هل تريد هذه اللعبة فضحنا وعقابنا، أم إنها تريد تطهيرنا من تلك الأفعال؟؟

علي كلٍّ، لقد حان الآن دورنا لنحكي عن ما حدث منا.....

حادث الفريق الثاني ويحكيه (حسين):

- أذكر ذلك اليوم جيدًا وكأنه بالأمس رغم مرور عامين على حدوثه، موسم الامتحانات، حيث الضغط النفسي والتوتر، أضف إلى ذلك اشتداد المرض على أمي.

يوم عصيب وقد قضيت عدة أيام قبله بلا نوم يذكر، زاد الطين بلة أنني أخفقت في أداء الامتحان الشفوي بمادة الفارماكولوجى، مما جعل نفسيتي وسلامي في حال يرثي لها.

بت ضيق النفس مهموم البال، وأردت الترويح عن نفسي.

أخذت سيارة والدي ورحت أطوف بها في شوارع المدينة بلا هدف.

الساعة تقترب من منتصف الليل، أسير بشارع فرعي، أمامي وعلى الضوء الخافت لعمود الإنارة رأيته يعبر الطريق، متبخترًا يمشي في بطء كأن الشارع ملكٌ له، لا أدري لما شعرت بالاستفزاز من ذلك القط الأسود الذي يعبر الطريق في تؤدة وهو يتطلع إلي في غرور.

لا أملك ضغينة مع القطط أو غيرها من الحيوانات الأليفة، بل على العكس، ولذا أردت أن ألعب معه، وأرسل له رسالة مفادها: إنني الملك هنا..

الطريق خاليًا، والمسافة بيني وبينه تسمح له بالمرور إلى الطرف الآخر، لكنني ضغطت دواسة الوقود في عنف، لتنطلق السيارة في جنون وهي تصدر صريرًا عاليًا..

اقتربت منه، فبدأ يهرول وهو على وشك الوصول، لكنني أدرت المقود سريعًا في اتجاهه وأنا أصطدم به في قوة.

سمعت صوت الاصطدام القوي بمقدمة السيارة، انتابتني نشوة غريبة، توقفت على بعد خطوات وأنا أتطلع إليه بالمرآة، يتلوى في ألم وهو يهز ذيله بلا توقف.

ترددت لحظات في النزول للاطمئنان عليه، ثم قطعت ترددي فلم أفعل، وغادرت المكان في بساطة وكأن شيئًا لم يحدث.

لا أفهم سببًا لفعلتي حتى هذه اللحظة فليس ذلك من طباعي، وربما اعتقدت أنه سينجو منها فللقط سبعة أرواح كما يقولون...

انتهى الفريقان من السرد، المفارقة أنه ليس ثمة لمحة من ندم في لهجة (حسين)، خلافًا لصديقه الذي ظهر ذلك جليًّا على نبرة صوته وقسمات وجهه.

مضت ثوانٍ قليلة، اختفت أيقونة اللعبة، وأظلمت الشاشة، وتوقف جهاز الكمبيوتر عن العمل، ثم انبعث الصوت الشيطاني يتردد في لهجة مخيفة:

يا قاتلي (القط الأسود) ....

اذهبوا إلى (مقبرة التاريخ) في (الليلة السوداء) ...

ولتطهرا بالسير بين القبور....

ففي الظلام الساتر والمستور....

لن أصف لك ما حدث بعدها ولن أطيل عليك، سأدع ذلك لخيالك، لكن من حقك أن تعرف أننا وبعد تفكير ومناقشات استطعنا حل تلك الشفرة، فهمنا أنه علينا أن نمكث ليلة في أقدم مقبرة بالمدينة، وفي ليلة من الليالي السوداء.

وكما ترى فها أنا ذا أقف في المكان الموعود، وفي الليلة الموعودة منتظرًا.

*****

(٥)

المقبرة

أخاف المجهول، تلك طبيعة بشرية يتشارك فيها الجميع، الإنسان عدو ما يجهل كما يقولون..

من يخاف الظلام يخافه لأنه مجهول،

من يخاف البحر يخافه لأنه مجهول،

عالم الماورائيات تخافه لأنه مجهول،

وحتى ذلك الغريب الذي يحل عليك ضيفًا تخافه لأنه مجهول..

خائف من تلك التجربة التي أوشك على الدخول فيها، لكني أخاف أكثر من مغبة الرفض، فلا أعرف ما الذي سيحل بي أو بأحبابي إذا اخترت الانسحاب الآن...

ها هو ذا (حسين) قادمًا من بعيد.

- جئت مبكرًا يا صديقي.

مددت يدي لأصافحه وأنا أرتعد بشكل ملحوظ، لا أدري هل أرتعد من البرد أم من الخوف أم من كليهما!!

حاولت التظاهر برباطة الجأش، فركت يدي ببعضهما البعض ونفخت فيهما وأنا أحدث نفسي بصوت مسموع: " تشجع يا رجل ولننهِ ما بدأناه".

كنت أرتدي معطفًا جلديًّا سميكًا، وقد غطيت رأسي بتلك القلنسوة السوداء التي أبدو فيها كصياد سمك روسي، فيما تلفح (حسين) بشال صوفي بني اللون وقد ارتدى قفازات قطنية سميكة..

بخطوات متثاقلة وبقلق داخلي تحركنا ناحية البوابة، لمقابلة عم (خميس)...

مهلًا...ماذا تقول؟؟ ارفع صوتك حتى أستطيع سماعك.

تسألني من يكون عم (خميس)!!،

ألا يبدو لك الاسم مألوفًا؟

لا ترهق نفسك كثيرًا بالتفكير، عم (خميس) خاصتنا يختلف تمامًا عن أي عم (خميس) تعرفه، هو خادم تلك المقبرة والمهتم بشئونها.

قابلناه في اليوم السابق، أخبرناه أننا صحفيان ونريد عمل تقرير عن أقدم مقبرة في المدينة وهي كوم الشقافة أو مقابر العمود كما يطلقون عليها، أقنعناه أننا نريد قضاء ليلة حتى يكون تقريرًا مميزًا يختلف عن تلك التقارير التي تم عملها نهارًا..

الرجل كان كريمًا ومتفهمًا ومتعاونًا وقرر استضافتنا ومرافقتنا في تلك الليلة،

في الخمسين من عمره تقريبًا، متوسط الطول والحجم، يرتدي جلبابًا رماديًّا أسفل معطف من الصوف كحلي اللون، أشيب الشعر والشارب وأثار الشاي والسجائر تبدو واضحة على أسنانه الصفراء.

استقبلنا في ودٍّ وهو يدعونا للدخول إلى غرفته..

الغرفة بلا كهرباء، وقد علق على الحائط (لمبة جاز) لتنير له.

غرفة بسيطة كصاحبها، تحوي سريرًا قديمًا، وأريكة متهالكة، ويتوسطها كرسيان خشبيان من البوص، وعلى الركن منها منضدة صغيرة وضع عليها ذلك الموقد العتيق والمذياع التقليدي القديم.

على الأرض قريب من المنضدة، ثمة بوتقة حديدية (قصعة) وضعت بها بعض الأخشاب التي احترق بعضها وتحول إلى جمر أحمر ملتهب.

جلس كلّ منا على كرسي، فيما أسرع عم (خميس) لإشعال الموقد وهو يضع عليه براد الشاي.

البرد قارص، ورائحة الشاي تعطر المكان وتنشر الدفء، وقد أضفت طقطقة احتراق الأخشاب جوًّا وديًّا، وصوت المذياع في الخلفية يثري الأسماع ويطرب القلوب.

التقطت كوب الشاي من الرجل وأنا أشكره، احتضنته بين راحتي يدي مستمتعًا بالدفء وأنا أرشف منه في تلذذ...

كان عم (خميس) ودودًا للغاية، وقد سره أن يقص علينا بعض المواقف التي تعرض لها خلال عمله بالمقابر، ليأخذنا بلا وعي إلى عالمه وهو ينتقل من قصة إلى أخرى، حلقنا معه في سمائه، حديثه الشيق أنسانا للحظة ما جئنا لأجله، انتشلنا من نشوتنا دوي مفاجئ يشق الآفاق ويقلق هدوء الليل..

كان صوتًا نعرفه ويعرفه الجميع، صوت سيارة الإسعاف.

- يبدو أنكم محظوظون يا سادة..

قالها عم (خميس) وهو يترك الكوب من يديه وينتصب واقفًا

أكمل وهو يرتدي غطاء رأسه الصوفي:

- وصلت أمانة ويمكنكم المشاركة إذا أردتم.

نطقها في حزم وخرج، تبعناه في صمت، وقد وقفت سيارة الإسعاف بلونها المميز على مقربة منا، اقترب من السيارة التي عم ضوؤها المكان فأضفى عليه جوًّا من الرهبة، تبادل التحيات مع السائق ومساعده، قبل أن يعطيه الأخير ورقة التقطها وطالعها في سرعة قائلًا:

- اذهب إلى المقبرة الغربية، قادم في إثرك.

اتجهت السيارة إلى مكان ليس ببعيد، انطلقنا خلفها بخطوات ثقيلة جراء الرمال الناعمة، أخرج عم (خميس) هاتفه وهو يتصل بأحدهم، خلال دقيقتين كنا نقف أمام بوابة، كتب عليها بخط واضح (مقابر ناقصي الأهلية).

أخرج مفتاحًا من جيبه ليفتح البوابة، ردد البسملة بصوت مسموع.

كانت عربة الإسعاف قد أضاءت مصابيحها الأمامية وسلطتها على المدخل، بالإضافة إلى الكشاف الضخم الذي التقطه عم (خميس) أثناء خروجنا من الغرفة، أزاح صخرة صغيرة أو اثنتين عن الطريق، وسرعان ما انضم إليه شاب نحيل، أسمر البشرة بعيون ناعسة، يمسك في يده بكشاف آخر، ويعلق فأسًا كبيرة على كتفه، عرفنا فيما بعد أنه مساعده (عبد الرحمن)..

تعاون الرجلان بهمة ونشاط على إزالة الطبقة الرملية، ثم نزعا (المجاديل) ونحن نتابعهما في صمت..

و(المجاديل) لمن لا يعرف، هي حجارة كبيرة تستخدم عادة كدرجات للدرج، وتستخدم في إغلاق القبور كذلك....

انتهوا من فتح المقبرة، هبط عم (خميس) درجاتها، تبعه مساعده وقد أمسك كل منهما بالكشاف في يده، ولسانهما لا يكف عن الأذكار والدعاء..

انتظرنا متأهبين وسط المقبرة، فيما وقف المسعفان قريبًا من البوابة، كانا يتهامسان في توتر ملحوظ ما جعلني أسترق النظر إليهما من وقت لآخر، ولم تكد تمر دقائق حتى صعد عم (خميس)، وقد غطى التراب رأسه وملابسه، اتجه إلى العربة قائلًا بصوت عالٍ:

- هيا يا رجال ننزل الأمانة.

تحركت أنا و(حسين) لمعاونتهم، فتح المسعفان الباب، وزاد التوتر على حركاتهما وأيديهما ترتجف في وضوح وهما يتلوان القرآن بصوت مرتعش بدا مرتفعًا....

حملنا الجثة ونحن ننزل بها درجات القبر في حذر، حتى وصلنا إلى الأسفل، المرة الأولى التي اجسر فيها على النزول إلى قبر، يختلف كثيرًا عما تخيلته فهو غرفة صغيرة منخفضة بسقف من الحجارة وأرضية رملية يتخللها قطع من الحصى صغيرة الحجم...

وضع المسعفون الجثة أرضًا، وخرجوا في سرعة كأن شياطين الأرض تطاردهم، ابتعدوا واقفين على أطراف المقبرة لانتظار التوقيع بالاستلام...

المتوفاة أنثى، لا يمكن الكشف على وجهها كما قال عم (خميس)، لأننا لسنا من محارمها، وهكذا كنا في طريقنا للخروج حينما سمعنا صوتًا..

صوت حشرجة غريبة مكتومة، يصدر تمامًا حيث وضعنا الجثة، نظرنا إلى مصدر الصوت في سرعة وقد اعترتنا الدهشة.

أمام أعيننا، كان وجه الجثة مكشوفًا، وقد تقطع الكفن عنه، كأن أحدهم انتزعه ومزقه في قوة..

- لا إله إلا الله... لا إله إلا الله... رددها عم (خميس) ثلاثًا، وهو يغطي الوجه في سرعة..

لم أرَ جثة من قبل، ولا أدري كيف تكون هيئتها، لكن الأمر يبدو غريبًا، فقد بدا وجه المرأة أزرقَ.... أزرقَ تمامًا..

انتهينا من إغلاق القبر، وانطلق المسعفون في طريقهم.

قفلنا راجعين إلى غرفة عم (خميس) فباغته:

- "هل من الطبيعي أن يكون الوجه أزرق بهذه الصورة؟

ومن نزع الكفن بهذه السرعة وبهذا الشكل العنيف؟

وما تلك الحشرجة التي سمعناها تصدر من الجثة؟".

توقف عن المشي فجأة وهو يتطلع إلينا في صمت، قبل أن يقول بصوت حاد يغلب عليه الحزن:

- الميت سر من الأسرار وأمانة لا يجوز أن نتكلم عنها أو نأتي على ذكرها.

ثم إنه أراد أن يقول شيئًا، لكنه تراجع في النهاية وهو يقول باقتضاب:

- ادعوا لها.

التزمت الصمت وأنا أتبادل النظرات مع (حسين) في حيرة.

تابعنا السير حتى وصلنا إلى الغرفة، دلفنا إلى الداخل، اتجه عم (خميس) إلى الأريكة ملقيًا جسده عليها، وما زال الشرود باديًا على وجهه..

ساد الصمت تمامًا وكأن الرجل غير منتبه لوجودنا، ويبدو أن الرجل المتمرس صاحب الخبرة قد رأى شيئًا مختلفًا اليوم...

أراد (حسين) كسر تلك الحالة فقال:

- لماذا يدفن الناس ليلًا يا عم (خميس)؟؟

انتشله السؤال من شروده فرفع رأسه في بطء قائلًا:

- إكرام الميت دفنه يا ولدي.

- ألم يسعهم الانتظار حتى الصباح؟

- العرف أن أهل الميت هم من يتحكمون في ذلك الأمر.

- وأين أهل تلك المرأة؟!!، لم نرَ إلا المسعفين؟؟

- لأنها من ناقصي الأهلية.

- ما معنى ذلك؟!

- مجهولو الهوية الذين يموتون ولا يعرف لهم أهل.

كان التعب باديًا على وجهه وصوته، أردت أن أخفف عنه وأكمل مهمتنا التي جئنا من أجلها فاستأذنته أن نخرج قليلًا لنلتقط بعض الصور اللازمة لتحقيقنا الصحفي المزعوم، فأذن لنا وهو يعتذر عن عدم استطاعته القدوم لشعوره ببعض الإرهاق...

انطلقنا خارجين، العتمة تلف المكان حولنا، والظلام حالك، أخرجنا الهواتف وأضأنا كشافاتنا، والبرد يضرب أوصالنا بلا رحمة.

انتقلنا بين القبور ونحن نلتقط الصور في عشوائية، حتى نكمل مسرحية الصحفيين تلك، وقررنا أننا سنكتفي بالتقاط عشرًا من الصور لنكون قد أنجزنا ما طلب منا وأزلنا أي شك في قلب الرجل من طرفنا.

- ركز في الطريق واحفظ خط سيرنا، لا أريد أن أعلق هنا حتى الصباح.

هز (حسين) رأسه في تفهم وهو يتلفت حوله في محاولة منه لحفظ خريطة المكان برأسه.

استمررت بالتقاط الصورة تلو الأخرى حتى وصلت إلى الصورة الأخيرة، وجهت الكاميرا لأحد القبور استعدادًا لالتقاطها، ثبتها وفعلت وضع الإضاءة الليلي، حينما.....

(مقابر ن.............)

اتسعت عيناي في ذعر عندما طالعت اللوحة المكتوبة على الحائط، أدركت الأمر، كنت أقف مباشرة أمام تلك المقبرة.

لاحظ (حسين) ارتباكي وهو على بعد خطوتين أو ثلاثة، اقترب مني وهو يقول:

- لمَ لا تلتقط الصورة الأخيرة حتى نمضي؟! إلى ماذا تنظر؟؟

لم يكمل كلمته وهو يتطلع إلى اللوحة فقال في عصبية:

- ما الذي أتى بنا إلى هنا؟

تلعثمت قائلًا:

- صدفة لا أكثر.

لم يبدُ أن إجابتي أقنعته، والحقيقة أنني لم أقتنع أيضًا.

تابع بصوت مرتعش:

- لنذهب سريعًا من هنا فقد أنجزنا ما جئنا لأجله.

حانت مني التفاتة على الباب الجانبي، بدا لي أن هناك شيئًا غريبًا بشأنه، كان عليّ الذهاب ولكنه الفضول.

الفضول شر من الشرور، وقد قال العرب قديمًا:

" من تدخل فيما لا يعنيه لقي ما لا يرضيه، وإبليس لما أراد أن يغوي (آدم) أغراه بشجرة الخلد"

﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ ﴾[1]

والمثل الإنجليزي يقول إن الفضول قتل القطة.

ويقال في الأساطير الاغريقية إن الفضول جعل باندورا تفتح الصندوق ليخرج الشر إلى الأرض (لكني لا أؤمن بذلك على أية حال)..

لكن، من قال إن الفضول دائمًا باب للشرور؟

الفضول أيضًا له مناقب؛

فضول (شهريار) لمعرفة كل القصص أنقذ (شهرزاد)،

وفضول (نيوتن) قاده إلى قانون الجاذبية..

على كلٍّ، لن أرهق عقلك بالحديث عن الفضول كثيرًا، لنعد إلى تلك الليلة.

التفتُّ إلى ذلك الباب، بدا لي أن هناك شيئًا غريبًا بشأنه، فقد خيل إليّ إنه مفتوحٌ على مصراعيه..

- هل الباب مفتوح؟؟

قلتها وأنا أتحرك تجاهه، أسرع (حسين) نحوي وهو يمسك ملابسي في إصرار يمنعني من التقدم، فقلت:

- لا تخف فلن أدخل، مندهش فقط لكونه مفتوحًا، كنت بجوار عم (خميس) وهو يغلقه، أغلقه بإحكام، أنا واثق من ذلك.

- هناك خطبٌ بالمزلاج لا شك، أو ربما نسي (عبد الرحمن) شيئًا بالداخل ورجع ليحضره، لكن لا تحاول الدخول، فلن أسمح لك.

سنخبر عم (خميس) ويتصرف كما يشاء...

قالها وهو يقف أمامي ليقطع الطريق عليّ، لكنّ صوتًا مألوفًا أتى من خلفه

---

[1] طه: ١٢٠.

أوقف شعر رأسي..

صوت حشرجة، حشرجة سمعناها سابقًا في المقبرة...

أتعرف صوت الغرغرة الذي يصدر من الغريق أو المحتضر؟ كان قريبًا جدًّا من ذلك..

سلطت الكشاف في سرعة باتجاه الصوت وصرخة مرعبة تدوي بجانبي.

كانت صرخة (حسين)، الذي امتقع وجهه في ارتياع وهو يشير إلى داخل القبر،

على ضوء الكشاف

وفي منتصف المقبرة

وعلى حافة القبر تمامًا

كانت تجلس

جثة أحدهم تقبع هناك وقد لف الكفن جسدها...

نراها من ظهرها بوضوح، وقد ألجمت المفاجأة ألسنتنا..

شعرت بنا وسمعت أصواتنا وسط ذلك الصمت الأسطوري، بلا مقدمات أدارت الجثة رأسها نصف دورة كاملة، أصبحت تنظر إلينا فيما ظل جسدها ثابتًا كما هو...

كان الصراخ من نصيبي هذه المرة، فذلك الوجه الأزرق المميز لا يمكن نسيانه بسرعة.

وجه تلك المرأة ينظر إلينا مباشرة..

أزرق اللون

عيون جاحظة

والعين قد أضحت بيضاء تمامًا.

أطلقت ساقاي للرياح وأنا أركض على غير هدى، وأنفاس (حسين) اللاهثة في إثري، كنا نجري في الظلام ونحن نتعثر في الصخور وشواهد القبور، وأصوات صراخاتنا المتقطعة تملأ الفضاء...

لا ندري كيف ولا أين قابلنا عم (خميس) وقد أمسك بكشافه في يده يحاول تهدئتنا بلا جدوى.

لم تستطع قدماي حملي فجثوت على ركبتي محاولًا التقاط أنفاسي، صدري يعلو ويهبط في سرعة بلا توقف، توكأت على كتف عم (خميس) حتى وصلنا إلى غرفته، التقطنا أنفاسنا وتمالكنا أنفسنا ليبدأ (حسين) في سرد ما حدث إلى عم (خميس)، كان يستمع في اهتمام وقد انعقد حاجباه في دهشة، أطرق إلى الأرض وهو يفكر مليًّا، ثم أخرج هاتفه ليطلب من مساعده مقابلته عند المقبرة..

اقترح أن ننتظره بالغرفة ريثما يذهب للوقوف على الأمر، وافقنا بكل ترحيب فبالطبع لن نذهب إلى هناك على أية حال.

مضت ساعة من الزمن قبل أن يعود وقد بدا عليه الإرهاق الشديد، تطلعنا إليه في ترقب وهو يلقي بجسده إلى الأريكة محاولًا التقاط أنفاسه قائلًا:

- كانت المقبرة مفتوحة كما ذكرتم، القبر أيضًا كذلك لكن الجثة على حالها، الأمر مريب ولا أدري كيف حدث هذا بتلك السرعة، الباب لم يكن مكسورًا وأنا متأكد من إغلاقي له.

ثم تابع بعد تنهيدة قوية:

- ثمة آثار زحف على الأرض، ونبش على باب القبر كأن أحدهم يحاول الخروج.

كنا نستمع إليه في رعب، غمغم وكأنه يكلم نفسه:

- المرة الأولى التي أرى فيها مثل هذا.

قالها ثم رفع رأسه وهو ينظر إلينا في ريبة بعدما تنبه لوجودنا وكأنه نسينا

مرة أخرى، يبدو من نظراته أنه يعتقد أننا نحس أو أن لنا صلة بالأمر، ولا يمكنني لومه على ذلك بعد كل ما حدث..

حاولت التبرير بحجج واهية فقاطعني في حزم وهو يقول:

- أعتقد أن هذا القدر يكفي وأرى أن تذهبا سالمين قبل أن يتأذى أحدكما.

شعرت بالإحراج، لكنني كنت متفهمًا، شكرته على عجل وغادرنا المكان....

خيم الصمت علينا طوال الطريق والأسئلة تدور في عقلي وتموج برأسي في كل وادٍ، فيما بدت نظرات الدهشة على وجه (حسين) ووقْع المفاجأة لا يزال باديًا عليه، وهو يحدث نفسه من آن لآخر بصوت هامس.

افترقنا وغادرنا إلى منازلنا بلا كلمة واحدة بفعل الصدمة..

الساعة تقترب من الخامسة فجرًا ولا بد أن أهلي يغطون في نوم عميق ولا أريد إيقاظهم، دخلت غرفتي على أطراف أصابعي وأنا أحمد الله أن الأمور مرت بسلام، كانت تجربة قاسية، لكن الأهم أن الجميع بخير ولله الحمد..

بكامل ملابسي ألقيت جسدي على السرير، لأدخل بعدها مباشرة في نوم عميق وشعور بالراحة يغمرني، انتهى الكابوس وتمت المهمة..

لكنني لم أكن أدري أنني كنت مخطئًا... مخطئًا جدًّا.

*****

(٦)

اختفاء

مضى أسبوع على تلك الليلة المشؤومة، أغلقت هاتفي، وامتنعت تمامًا عن الرد على الهاتف الأرضي، أريد الاختلاء بنفسي قليلًا، فلربما استطعت نسيان ما حدث.

لاحظت أمي انعزالي وطول مكثي بغرفتي، ككل الأمهات اعتقدت أنني أعيش قصة حب فاشلة، تجلب لي الطعام مشفقة ثم تعود بعد مدة لحمل البقايا فتجد الطعام كما هو، تشرع في إعطائي النصائح عن أنني يجب أن أنسى تلك الحبيبة الوهمية وأن الحياة لن تتوقف على أحد، تريدني أن أحكي لها كل التفاصيل حتى تزوجني (ست ستها)، وكلما أوضحت لها أنه لا وجود لهذا الأمر ازدادت يقينًا أنني أخفي شيئًا وأكذب عليها، ثم تنصرف في حزن وهي تدعو على تلك الفتاة التي تسببت في ذلك.

أسمعها تتحدث مع خالتي عبر الهاتف لتؤكد لها أن أحدهم صنع لي سحرًا، وستأتي بشيخ ليرقيني ويكشف ما بي. سأتركها تعتقد ذلك، هذا أفضل بلا شك من معرفة ما حدث في المقبرة.

اهرب من الأمر بالنوم، لكن حتى النوم في تلك الليلة كان مختلفًا...

أقف في صحراء مترامية الأطراف لا نهاية لها، السماء تتلون بلون الغروب الرمادي، (حسين) يقف بجواري، يتطلع لي في حيرة كمن يستفسر عن سبب وجودنا في هذا المكان، ثم يبدأ الليل بإلقاء ظلاله علينا سريعًا كأنه موجة تغشي المكان كله وتصبغه بالسواد القاتم، أيادٍ زرقاء تخرج من الأرض، تحيط بنا من كل صوب، تحاول إمساكنا، نركض في الظلام بلا هدف، نصطدم بواحدة من تلك الأيادي، نتعثر ونسقط على وجوهنا في عنف.

أحاول النهوض رغم جسدي المنهك والآلام الرهيبة التي تضرب كل قطعة فيه، لكن الأيادي لا تمهلنا وتمسك بنا من أطرافنا الأربعة، تشل حركتنا تمامًا، ثم تختفي، يتبدل المشهد لأجد نفسي وحيدًا عند حافة القبر لكني ما زلت مشلولًا وقدماي لا تقويان على حملي.

أسمع صوت تلك الحشرجة يأتي من أسفل، وتلك المرأة ذات الوجه الأزرق تصعد درجات القبر ببطء، وقد لبست كفنًا أسودَ، وضوء القمر يسطع في وضوح، ينعكس على عينيها البيضاء تمامًا، لتعلو وجهها نظرة باردة قاسية، أحاول الهرب فلا أستطيع، تمد يدها لتمسك بعنقي في قوة وأنا أصرخ طالبًا للنجدة ولا يخرج صوتي، أختنق بشدة، تنقطع أنفاسي، أوقن بالهلاك، ثم...

رن الهاتف لينتزعني من ذلك الكابوس الملعون، فتحت عيني بصعوبة، بنصف وعي، تتبعت صوته حتى عثرت عليه، لأجيب بصوت أجش دون أن أنظر إلى الشاشة:

- من المتصل؟

- ابحث عني يا صديقي ولا تتركني، اتبع الطريق من المكان الأول.

الرد كان مباغتًا، استغرقت وقتًا حتى أدرك ماهية الصوت، تبينت فيه صوت (حسين) وإن بدا مرتعبًا، انتبهت وأنا أطرد النعاس منتفضًا:

- حسين؟ ما الذي تقوله؟! لا أفهم شيئًا.

اختفى الصوت ليحل محله تلك الحشرجة المميزة لتلك المرأة وينقطع الاتصال بلا مقدمات.

اعتدلت جالسًا وأنا أصرخ على (حسين) بلا جدوى.

تطلعت حولي أتأكد أنني لم أكن أحلم، فركت عيني في حيرة محاولًا الفهم.

بصعوبة أعدت ترتيب الأحداث في عقلي المشوش.

كنت أحلم ومعي (حسين)، ثم... تذكرت إنني في نهاية الحلم رأيت الأيادي تمسك به، وتسحبه إلى باطن الأرض، قبل أن أستيقظ على تلك المكالمة..

أعدت فرك عيني في عصبية، زفرت في حرارة، وشعور بقلة الحيلة يجثم على صدري ويزحف إلى روحي..

ماذا يعني بقوله (اتبع الطريق من المكان الأول)!!

ألن أكتفي من تلك الأحاجي؟!

لماذا لا يكون الأمر مباشرًا دون تشويق أو غموض؟!
سئمت هذه الحماقة، سأتصل به لأفهم ما يحدث، هناك جديد ولا بد من معرفته.
أمسكت الهاتف محاولًا إخراج رقم (حسين)، حينما خطر لي شيء.
هاتفي كان مغلقًا منذ فترة وها هو مغلق الآن!!، من اتصل بي وهو على تلك الحالة؟؟ كيف استطاع فعل ذلك؟ هل من الممكن أن يكون وهمًا؟
كنت أحدث نفسي وأنا أتطلع بذهول إلى الهاتف المغلق في يدي، أعدت تشغيله واتصلت بحسين، أتاني صوت الرد الآلي بأن الهاتف مغلق.
أسرعت إلى درج مكتبي، أخرجت مفكرتي القديمة، بحثت عن رقم هاتفه الأرضي حتى وجدته..
الوقت متأخرًا لكني لا آبه، هذه المكالمة مهمة، أزعج أهله بلا شك، لكني أريد الاطمئنان على صديقي، لا أستطيع الانتظار حتى الصباح.
طلبت الرقم وانتظرت، بلا إجابة في المرة الأولى والثانية، في المرة الثالثة أجابت والدته بصوت يغلب عليه النعاس:
- السلام عليكم.
- كيف حالك يا خالتي؟
- الحمد لله بخير.
تساءلت في كسل مشوب بالدهشة:
- من المتصل؟
- شريف.
صمتت برهة وكأنها تستوعب:
- كيف حالك يا ولدي؟
قالتها في ترقب وبصوت يغلب عليه القلق.
- في أفضل حال.
- هناك خطب ما؟

- الأمور بخير، وأعتذر عن اتصالي في هذا الوقت المتأخر، لكنني أريد التحدث إلى (حسين) في أمر مهم.

- حسين؟!

قالتها في تعجب ثم أردفت:

- ألستم معًا في معسكر (أسوان)؟!! أخبرني أنك ذاهب معه، كنت سأتصل بك لأطمئن عليه بعدما أغلق هاتفه.

لم أدرِ ما الذي يجب عليّ قوله، لكني لن أزيد خوفها وقلقها أكثر من ذلك، حاولت تبرير الأمر بأنني لم أستطع الذهاب لظروف حالت دون ذلك وقد اعتقدت أنه عاد..

في تشكك:

- عاد؟!، كيف يعود ولم يذهب إلا بالأمس؟؟

وبصوت يغلب عليه الاضطراب تابعت:

- إذا كان هناك شيء سيئ ألمّ بولدي فلتخبرني.

حاولت طمأنتها، وأنا أؤكد لها أن الأمور جيدة، وأنني سأتواصل مع أصدقائنا بالمعسكر واجعله يتصل بها فقالت:

- أعلم يا (شريف) أنك في منزلة أخيه، يحبك ويثق بك وربما تعرف عنه أكثر مني، لذا أريد الاستفسار منك.

- استفسار! بخصوص ماذا؟

- أحواله في الفترة الأخيرة، تغيرت ولم تكن على ما يرام.

لم أعلق فتابعت:

- الأسبوع الأخير مكث في غرفته، لم يبرحها إلا نادرًا، لا يخاطب أحدًا ولا يريد التواصل مع أحد، الكوابيس لا تفارقه وسمعته يصرخ في نومه أكثر من مرة.

تظاهرت بالدهشة قائلًا:

- ربما أثقل في العشاء يومها.

- العشاء!، زهد في الطعام والشراب، نحل جسده وأصابه الهزال حتى صار كالهيكل العظمى.

- لهذه الدرجة؟!

- الأدهى أن هناك شيئًا أقلق منامي وزادني خوفًا وقلقًا.

- ما الذي حدث؟

- منذ أيام كنت مستيقظة أصلي الفجر وفوجئت به عائدًا، دخل غرفته دون أن يلحظ وجودي رغم مروره من أمامي، خشيت أن يكون أحدهم قد أعطاه مخدرًا أو زج به في ذلك الطريق المهلك فتتبعت أخباره.

زفرتْ في حرارة وأردفتْ:

- سألت حارس العقار عن مواعيده، علمت أنه كان يخرج ليلًا ليعود في الخامسة صباحًا كل يوم، ألا تعلم شيئًا عن ذلك؟؟

أجبتها في ارتباك:

- كنت مشغولًا الأسبوع الماضي ولم أتواصل معه.

صمتت قليلًا ثم تنهدت وهي تقول:

- أعلم أنك لن تصدقني يا ولدي، لكن وجهه صار أزرقَ بشكل غريب، لا أدري كيف حدث هذا ولم أستطع سؤاله، لذا شجعته بلا تردد على ذهابه لذلك المعسكر.

قلت لها كلامًا على غرار أنه يجب أن لا تقلقي، وأن كل شيء سيكون على ما يرام، ونحن بجواره وسنساعده، تمنت لي الخير، شددت عليّ في طمأنتها في أقرب فرصة، وقد وعدتها بذلك.

أغلقت الهاتف وصداع قوي يضرب رأسي، تحققت أسوأ مخاوفي، اعتقدت أنني لن أذهب لتلك المقبرة ثانية، لكن يبدو أنني مضطر لفعل ذلك..

ارتديت ملابسي في الصباح وتوجهت إلى المقابر، وصلت إلى غرفة عم (خميس)، طرقت الباب المغلق مرتين ولا مجيب، انتحيت جانبًا وأنا أبحث عن شيء أجلس عليه، وجدت صخرة استندت عليها منتظرًا قدومه..

بعد قليل أتى حاملًا كيسًا من البلاستيك، بيده الأخرى قفص خشبي عليه القليل من أرغفة الخبز.

أبصرني فتغير وجهه لكن منعه أدبه من طردي، وهو يدعوني إلى الدخول ويرحب بي في غضب مكتوم.

دلفت إلى الغرفة، جلست على الكرسي فيما بدا متحفزًا وهو يقول:

- أهلًا بك أستاذ (شريف).

قصصت عليه ما حدث منذ غادرت في تلك الليلة وحتى تلك اللحظة، تخلى عن تحفزه وهو يجلس على الكرسي المقابل وقد بدا عليه الضيق:

- كنت أخشى من حدوث مكروه لك أو لصديقك، لكن سبق السيف العزل، حذرته أكثر من مرة ولم يستمع لنصيحتي.

اخترقت الكلمة مسامعي فسألته مقاطعًا:

- حذرته أكثر من مرة؟ متى؟

نظر إلي في دهشة وقال:

- ألم يخبرك؟؟

هززت رأسي نافيًا ليواصل:

- كان يأتي هنا كل يوم في منتصف الليل، يجلس أمام مقبرة تلك المرأة دون حراك حتى يطلع الفجر، انتبهت إليه من اليوم الأول فنهرته أن ذلك سيضره، نهيته أن يأتي مجددًا، كان يغافلني ويعود ثانية، حتى إنني هددته بإنني سأطلب له الشرطة في مرة من المرات...

ساد الصمت لدقيقة كاملة ثم قلت في يأس وأنا أتطلع إلى وجهه:

- الحل يكمن في تلك الجثة ولا بد لنا من فتح المقبرة.

اتسعت عيناه في غضب، انتفخت أوداجه قائلًا بصوت كالفحيح، وبهدوء كالذي يسبق العاصفة:

- ما الذي تقوله يا هذا، هل جننت؟؟

ثم بدأ صوته في الارتفاع وهو يشيح بيده:

- كان يومًا أسودَ حين وافقت على وجودكم هنا، ها أنا ذا أدفع ثمن ذلك، نهايتي ستكون في السجن أو الاختفاء كما اختفى صديقك.

حاولت تهدئته، كان ثائرًا للغاية فتركته ينفث كل غضبه دون أن أنبس ببنت شفة، اخرج ما في جعبته وهدأ قليلًا، قلت له في استعطاف:

- أريد مساعدتك يا عم (خميس)، ماذا ستفعل لو كنت مكاني؟؟

ثم أكملت في سرعة محاولًا قطع بداية ثورته مرة أخرى:

- هنا شيء مخالف للعادة وخارق للطبيعة، رأيت ما حدث أمام عينيك، وتعرف أن شيئًا سيئًا في الطريق لو لم نحاول إيقاف ذلك الأمر، ربما كان الدور القادم على أحد منا أو من أحبابنا.

- تطلب مني أمرًا صعبًا، أنا رجل في موضع المسئولية، كيف أفتح قبرًا على شخص مات منذ أسبوع والأمانة تقتضي.........

قاطعته قائلًا:

- الأمر صعب، أعرف بما تشعر، لكننا لا نملك حلًّا آخر.

- لا تعرف شيئًا، لو كنت تعرف لما طلبت ذلك...

قالها في توتر، أجبته:

- الأمر يستحق المجازفة، حياة إنسان على المحك.

ساد الصمت بعد ما قلته، بدت عليه الحيرة الشديدة قبل أن يقول:

- سأفكر في الأمر وأتصل بك.

كان هذا إيذانًا بانصرافي فشكرته وغادرت..

*****

(٧)

القط الأسود

الثامنة مساءً حينما رن جرس الهاتف

كان المتصل عم (خميس)، أخبرني بموافقته على طلبي وبأنني يجب أن أذهب إليه خلال ساعتين، لإنهاء ذلك الأمر في الخفاء بلا ضجة..

بعد ساعتين، كنا أمام القبر، شرع عم (خميس) في فتح المقبرة، أزال المجاديل، ثم ابتعد وهو يطلب مني ذلك، لاحظت الضيق باديًا على وجهه لكني لم أعلق، غطى وجهه خوفًا من هواء القبر وكذلك فعلت، مرت بضع دقائق قبل أن يمسك الكشاف ويبدأ النزول، تلا آيات من القرآن وألقى السلام على من بالقبر، تبعته نزولًا وجسدي كله يرتعش خوفًا، لست شجاعًا ولكني أيضًا لست جبانًا، ولن أترك الرجل ينزل وحده، وقد ورطته في هذا الأمر. وصلنا إلى الأسفل ورائحة كريهة لا يمكن وصفها تعم المكان، الجثة تقبع مكانها، اقترب منها، شرع في رفع ما تبقى من الغطاء عن وجهها. كنت أقف خلفه مترقبًا حينما كشف الوجه.

الوجه أزرق كما رأيناه أول مرة، والعيون جاحظة، وقماش الكفن الأبيض محمل بالأتربة، ولكن مهلًا.....

الملامح مختلفة كليا!!، ليست ملامح تلك المرأة التي رأيناها سابقًا، لكنها ملامح أخرى أعرفها، رأيتها قبل ذلك وأحفظها و......

بدأت قدماي في الارتعاش بشدة، وانقطع صوتي حينما تذكرت ذلك الوجه، فهذا وجه صديقي.. وجه (حسين) ...

انتفض عم (خميس) واقفًا وهو يتراجع في بطء وقد ارتفع صوته بالاستعاذة في هيستريا..

كنت أتراجع خلفه، سمعت صوت تلك الحشرجة المميزة يأتي من الركن، سلطت كشافي سريعًا على مصدر الصوت، هالني ما رأيت.

جثة المرأة جالسة، بعيون مفتوحة، تتطلع إلينا في برود....

كان ما حدث يفوق قدرتي، شهقت مصعوقًا، صعدت الدرجات في هيستريا حتى خرجت، الهواء البارد يضرب صدري، ما إن وصلت إلى الدرجة الأخيرة حتى سقطت على الأرض مغشيًا عليّ، وأظلمت الدنيا أمام عيني..

أفقت لأجد نفسي نائمًا على السرير بغرفة عم (خميس)، جلس على الكرسي قريبًا مني فيما بدا عليه الشرود.

كان الصداع يضرب رأسي بشدة، حاولت النهوض فلم أستطع، انتبه لي وقام يناولني كوبًا من الشاي الساخن، ثم عاد إلى جلسته الأولى في صمت..

لا أتذكر ما حدث بعد خروجي من المقبرة، لا بد أنني فقدت الوعي واضطر لإحضاري إلى هنا..

اعتدلت في جلستي، ارتشفت بعضًا من الشاي:

- سلمت يداك.

تطلع لي في صمت، ثم تنهد في قوة:

- كنت محقًّا، لا بد أن تكمل الطريق حتى توقف تلك اللعنة.

تنبهت قائلًا في ارتياع:

- أين (حسين)؟

أخذ نفسًا عميقًا وزفره في قوة:

- لم يعد هناك.

- وجثته؟!

- اختفت!!

- كيف؟

هز رأسه في حيرة:

- لا أملك تفسيرًا، اصطحبتك إلى الغرفة، ثم عدت لأجد جثة المرأة مكانها، ولا وجود لجثة صاحبك.

- بما تنصحني؟

- لديك طريق من اثنين لا ثالث لهما، أما أن تتابع البحث عن صديقك، أو تتظاهر كأن شيئًا لم يحدث وتتابع حياتك. وفي الحالتين، يجب أن تأخذ قرارك بنفسك، أنت وحدك من سيدفع الثمن..

- كيف أبدأ؟

شرد للحظة وقطب جبينه في تفكير:

- الخيط الوحيد الذي تملكه، ماضي تلك المرأة.
- لا أعرف عنها شيئًا، أخبرتني أنها مجهولة الأهل.
- لدي تصريح الدفن، به بعض المعلومات الأولية التي ستفيدك بلا شك.

كنت متعجبًا لتماسك الرجل ومنطقية حديثه رغم ما كابدناه، عزوت ذلك إلى خبرته وطول بقائه بالمقابر، فقلت في حزم:

- لن أترك صديقي.
- من الجيد أنك حسمت أمرك...

قالها وهو ينهض متوجهًا إلى خزانة معدنية متوسطة الحجم، لم أنتبه إليها قبلًا، فتحها وهو يخرج منها ملفًا كبيرًا به الكثير من الأوراق، قلب فيه حتى وقعت عيناه على ورقة كتب عليها تصريح دفن، توقف عندها وهو يطالعها، ثم التقطها وأغلق الملف وهو يضعه جانبًا..

لم يكن بتصريح الدفن اسم المتوفي أو عنوانه، لكنه كان يحوي اسم المستشفى وتاريخ الوفاة، وأعتقد أن ذلك كان كافيًا ليمسك عم (خميس) ورقة وقلمًا ويدون البيانات.

كنت ما زلت جالسًا على السرير، رأيت شيئًا أثار انتباهي، على باب الغرفة، وأمامي مباشرة، كان يقف قط أسود ضخم الهيئة، ينظر إلينا متابعًا وعيونه تلمع في الظلام.

شعرت بعدم الارتياح لذلك القط ولنظراته الثاقبة، ظل واقفًا يراقب. انتهى عم (خميس) من تسجيل البيانات ليختفي فجأة كما ظهر فجأة.

التقطت الورقة من عم (خميس) وأنا أشكره في حرارة وهو يدعو لي بالتوفيق والسداد.

انصرفت من المقابر شاعرًا بغصة في الحلق، وضيق في التنفس، قررت الذهاب لأتمشى قليلًا على شاطئ البحر..

أحب الجلوس على البحر، يأسرني غموضه، لكن رهبته لم تفارقني منذ غرق أحد أقاربي، مكاني المفضل بالقرب من بئر مسعود. وصلت هناك، تخطيت ذلك الحائط المعدني القصير، وتحركت على الصخور الضخمة المدببة حتى وصلت إلى بقعة قريبة قدر الإمكان، سحبت نفسًا عميقًا من هواء البحر وزفرته أملًا أن يسحب بعضًا من الطاقة السلبية التي تغمرني.

المكان خالٍ تمامًا إلا من قلة متناثرة، أمر طبيعي في ذلك الوقت من العام وفي هذه الساعة المتأخرة، خلافًا لفصل الصيف الذي يكون مكتظًا عن آخره.

لمحت رجلًا يبيع الشاي، استلقى غافيًا على المقعد الإسمنتي بجوار أغراضه، تدثر بغطاء ثقيل، وأحكم طاقيته الصوفية على رأسه، وقد انكمش من البرد.

ثمة صخرة صغيرة اعتدت الجلوس عليها، الأمواج تهدر في قوة، فيما هبت نسمة دافئة تحمل معها القليل من رذاذ الأمواج المتلاطمة فتنشرها على أحدهم، كان يجلس قريبًا على كرسيه واضعًا صنارته في الماء، بدا غير آبهٍ بقطرات الماء البارد التي تضرب وجهه بين الحين والآخر وربما اعتاد ذلك لطول جلسته، موقع جلوسه مثير للدهشة فهو قريب من الحافة لدرجة كبيرة، أثار انتباهي تركيز بصره أمامه بلا التفات، لعله متيم بالبحر يجد سلواه في وحدته، ثم إن هذا ليس شأني على أية حال، ملامحه غير واضحة بالنسبة لي، لكن وضعيته الثابتة كالصخرة حركت الفضول بداخلي وجعلتني أرمقه بطرف عيني، خشيت أن يغفو قليلًا فيختل توازنه ويسقط في الماء من ذلك الارتفاع، مما يعجل بهلاكه فظللت أتابعه متحفزًا ليمكنني التدخل إذا لزم الأمر..

بلا مقدمات، قام واقفًا وهو لا يزال يعطني ظهره، تبينت بجواره شيئًا أسود اللون، للوهلة الأولى اعتقدت أنه كيس من أكياس القمامة السوداء، دققت النظر مليًا لأدرك أنه ليس كذلك، واصلت التحديق محاولًا سبر أغوار ذلك الشيء، اتسعت عيناي في دهشة بعدما أدركت ماهيته، كانت امرأة بملابس سوداء تجلس على الأرض بجانبه بوضعية الاقعاء (جلوس الكلب)...

تنبهت حواسي وأنا أراقبهما بعدما أثارا فضولي، لم يمضِ وقت طويل حتى انتصبت المرأة واقفة بجواره، متجاورين يطالعان البحر دون أن ينظرا إلى بعضهما البعض، أخرج شيئًا من طيات ملابسه، وقف شعر رأسي في تحفز حينما أدركت ما يحدث.

هل أنا أحلم؟ قلتها لنفسي وأنا أضرب جبهتي في ذهول، ثم ما لبثت أن أيقنت استحالة ذلك مع هدير الأمواج من حولي ورائحة البحر القوية، وتلك البرودة التي ضربتني فجأة بلا مقدمات... شرع يقيد يديها ورجليها، ظلت ساكنة بلا حراك أو مقاومة، نظرت حولي بحثًا عن النجدة ولم أجد أحدًا، استجمعت شجاعتي وصرخت:

- ما الذي تفعله يا هذا؟؟ أنت تقتلها!!

تجاهل صرختي كأنه لا يسمعني، كررت الصراخ عليه وأنا أقف متخشبًا كتمثال عاجز عن الحركة فلم يلتفت، فوجئت بالمرأة تدير رأسها وهي تتطلع لي في صرامة، حين التقت عيناي بعينها عرفتها على الفور، ارتعدت فرائصي بعدما أدركت ماهيتها، كيف لا وهي بطلة الأحداث في حياتي في الآونة الأخيرة، سيدة المقبرة صاحبة الوجه الأزرق، فتحت فمها وصرخت في قوة، لم أسمع صراخها لكني شعرت بطنين رهيب يضرب أذني، وضعت يدي عليهما في ألم، تلاشت الأصوات من حولي، وتشوشت الصورة أمامي، كأنني أشاهد فيلمًا مهتزًا قديمًا، سمعت أحدهم يتمتم كالهمس بكلمات غريبة، وبلغة لا أفهمها، تخشبت المرأة في وقفتها.

سائل كالدم لكنه أسود انساب من عيونها وأنفها، نظراتها الباردة ما زالت مسلطة علي، ثم تحركت خطوة لتقف على حافة الصخور، وألقت بنفسها في الماء بلا تردد.. لم يدم اندهاشي طويلًا، فبعدها مباشرة تبعها الرجل في صمت، الطنين لا يزال يتردد في أذني، ارتعش مكاني، لساني عاجز عن الكلام، وقدماي عاجزتان عن الحركة، ظللت على هذا الوضع إلى طلوع الشمس ثم استجمعت قواي ورحلت...

(٨)

القلادة

الكابوس نفسه في كل مرة..

الأيادي الزرقاء، والمرأة ذات الكفن الأسود، أقوم من نومي فزعًا وأنا أذكر الله بلا توقف، كنت أجلس على حافة السرير وأنا أضع يدي على رأسي حينما شعرت بحرارة غريبة تلفح جسدي، أتعرف ذلك الإحساس حين تشعر أن أحدًا ما يقف خلفك، تشعر بأنفاسه وحرارة جسده، أعلم ألاعيب العقل تلك، وأدرك أنني حين ألتفت فلن يكون هناك أحد.

التفتُّ في كسل، حينما انتصب شعر رأسي، واتسعت عيناي ذعرًا وأنا أعتدل واقفًا، فخلفي تمامًا، وفي ركن الغرفة، كان يقف هناك، وهو يتطلع إليّ بتلك العيون التي رأيتها سابقًا، عيون ذلك القط الأسود...

ما الذي أتى به إلى غرفتي؟ ولماذا ينظر إليّ بتلك الطريقة؟

تابعته بنظري، تحرك خطوتين، واخترق الحائط في سهولة وانساب خلاله ليختفي تمامًا..

أقف في وسط الغرفة وقد ألجمت المفاجأة لساني، رفعت رأسي ونظرت في المرآة، لمحت ظلًا أسود يقف خلفي. أدرت رأسي بحركة غريزية لكني لم أجد أحدًا..

ألقيت بجسدي على السرير وقد بلغ مني الرعب مبلغه... حاولت تمالك أعصابي، حل شعور اللا مبالاة محل شعور الرعب..

لماذا يحدث لي كل هذا؟ وما هي خطة تلك المرأة الملعونة؟!

إذا كانت تريد أن تقتلني فلتفعل ذلك ببساطة، لكن أن تمارس معي تلك الألاعيب فلا أقدر على ذلك، يكفي تلك الأشياء التي تظهر فجأة وتختفي فجأة، أنا شاب صغير ولست عالمًا في عوالم ما وراء الطبيعة، ثم إنني أريد الإنجاب على كل حال، وإن كنت أشك في ذلك بعد كل ما حدث معي.

أين تلك الأشباح لطيفة المعشر التي لا تفعل شيئًا سوى أنها تحرك الأشياء أو تصدر صوتًا!!!، حظي العاثر أوقعني في واحد من الكيانات الشيطانية ثقيلة الظل والتي لا تتمتع بحس الدعابة، بعد كل ما رأيته وعاينته فلن يدهشني شيء، ولن أتفاجأ إذا وجدت أحدهم يلعب بمقلتي عينه أو يمشي بنصفه العلوي، بل إنني سأنهرهم على ابتذالهم وآمرهم بترك اللعب وإكمال أعمالهم....

الساعة تشير إلى التاسعة صباحًا، أمسكت بهاتفي وطالعت جهات الاتصال ليظهر أمامي اسم د(سامح)، جاري الحالي وصديق الطفولة، يعمل طبيبًا شرعيًّا بمشرحة أحد المستشفيات التابعة لوزارة الصحة، أعلم أنه يستيقظ مبكرًا للذهاب لعمله، لذا تشجعت على الاتصال به وطلب مساعدته.

بودٍّ إجاب:

- أهلًا بالرجل المهم؟ كيف حالك يا فتى؟؟

- الحمد لله بخير.

- أين تختفي أيها النذل، هاتفك مغلق منذ فترة ولم أستطع إيجادك.

- كنت أمر بوعكة لكنني تحسنت.

- سلمك الله، وددت أن أشمت بك، وأقول إن وعكتك عرض جانبي لنذالتك معي، لكني أتمتع بقلب طيب وأحب الخير للجميع.

ابتسمتُ رغم حالتي النفسية السيئة فتابع:

- ما الذي أيقظك باكرًا أيها الوطواط؟! أعرفك وأعرف كرهك لذلك.

- واقع في مشكلة كبيرة.

اكتسى صوته بالجدية:

- أي مشكلة؟ كلي آذان مصغية.

- أريد خدمة، لن يفيدني أحد غيرك.

ضحك في صوت مسموع:

- لتقل هذا من البداية أيها المخادع، ظننتك تطمئن على صديقك.

ثم تابع: رهن إشارتك وتعلم ذلك.

- أريد بعض البيانات المتعلقة بوفاة أحدهم، هل تستطيع مساعدتي في هذا؟

- بالطبع أستطيع، لكن هل يهمك أمره لتلك الدرجة؟ هل هو أحد أقربائك أو شخص أعرفه؟

- امرأة مسكينة كانت تنام بالشارع، ماتت وحيدة، ودفنت في مقابر ناقصي الأهلية دون علم أهلها.

في دهشة:

- وما علاقتك بهذا الأمر؟!

- صديق لي كان يراها ورثي لحالها، ويريد أن يبحث عن أهلها ليخبرهم.

- تجهد نفسك بلا طائل لكن لك ما تريد، أطلعني على المعلومات المتوفرة لديك، وسأرى ما الذي يمكنني فعله.

- أملك اسم المستشفى، وتاريخ الوفاة.

- ابعث لي التفاصيل في رسالة، سأستعلم عنها، وأتصل بك.

أغلقت الهاتف شاكرًا، أرسلت له البيانات، وردني اتصاله أنه استطاع إيجاد زميل سابق لصديقه، يعمل بتلك المستشفى، وينتظرنا اليوم في تمام الحادية عشرة ظهرًا..

تواعدنا على اللقاء وأنهيت المكالمة، دلفت إلى المطبخ لأعداد كوبٍ من الشاي ولتجهيز نفسي لمقابلة الرجل، حينما دقت الساعة الحادية عشرة كنت هناك .. أمام المستشفى أقف مأخوذًا بالمشهد..

ينتابك شعور مفاجئ بالشكر وأنت ترى ذلك الكم الهائل من المرضى، فهذا رجل مسن يدخل على كرسيه، وذاك شاب لا يقوى على المشي وقد استند على كتف أحد أقاربه فيما يبدو، وتلك المرأة الحامل ذات البطن المنتفخة التي تمشي في صعوبة في شهورها الأخيرة، فتاة صغيرة لا تكف عن البكاء وقد أمسكت بيد أمها التي تحاول إسكاتها بلا جدوى، وهذا.. وتلك.. وذاك...، أناس من كل شكل ولون، أصيب كل واحدٍ منهم بمرض يختلف عن الآخر.. انتابتني الدهشة من كثرة أعدادهم وأنا أتساءل أين الأصحاء إذا كان هؤلاء جميعًا مرضى؟!

كنت غارقًا في التساؤلات حينما ربت أحدهم على كتفي:

- مواعيدك منضبطة كالساعة..

قالها (سامح) ونحن نتبادل السلامات والتحيات، جذبني من يدي وهو يسرع الخطى قائلًا:

- الرجل في انتظارنا، لا نريد أن نتأخر عليه.

انطلقت خلفه أحاول جاهدًا اللحاق به وهو يقول:

- هذا الرجل يملك كل البيانات، سيفيدنا بلا شك.

ثم تابع بلهجة ساخرة مغيرًا مجرى الكلام:

- هل أنت في علاقة عاطفية مع أحدهم؟

- ما الذي أوحى إليك بذلك؟

كنا ما زلنا نخط السير حينما قال دون أن ينظر إلي:

- أعلم أنك لا تحب القطط، لن يجبرك على اقتناء واحدة إلا فتاة تجيد الإقناع.

وبلهجة معاتبة أردف: كان يجب أن تستشيرني قبل أن تقدم على تلك الخطوة، تعلم خبرتي في هذا المجال.

- لا أعلم عما تتحدث!

- أتحدث عن القط الموجود لديك بالبيت، سمعت صوته حينما كنت تهاتفني.

تسمرت في مكاني وأنا أمسك بيده، أجبرته على التوقف وقلت:

- لا أملك قطًا، ولم يكن بجواري أي صوت!

التفت إلي ورفع حاجبيه في دهشة:

- لولا نبرتك الجادة لظننتك تمزح، أؤكد لك أن صوته كان واضحًا، من خبرتي أقول إنه كان ذكرًا، ذكر غاضب.

لاحظ تعجبي فقال مقتضبًا:

- لنترك أمر ذلك القط جانبًا، فقد وصلنا إلى مكتب الرجل.

تحرك سريعًا فتبعته في صمت، ليطالعنا غرفة دلف إليها في سرعة، اقترب من رجل نحيل أصلع الرأس، يجلس على كرسي خلف مكتب في منتصف الغرفة، صافحه وهو يقدم إليه نفسه، رحب الرجل بنا في بشاشة وهو يدعونا إلى الجلوس.

قلبت عيناي مستكشفًا تلك الغرفة، لم يكن بها شيء يذكر غير مكتب معدني متواضع تناثرت عليه بعض الملفات، جلس مضيفنا خلفه وعويناته تتدلى على صدره وقد علقها بسلسة معدنية، في الجهة الأخرى ثلاثة من الأرفف الحديدية مكتظة بالأوراق، ورائحة الشاي والتبغ تملأ المكان..

تبادلا بعض كلمات المجاملة، ارتدى عويناته وأخذ نفسًا من سيجارة طويلة (سوبر) كانت بيده وهو يقول:

- تحت أمركم.

- نريد بعض البيانات، جثة دفنت منذ وقت قريب.

قالها (سامح) لينظر الرجل إليه بإمعان، رجع بكرسيه إلى الوراء:

- تعلم يا دكتور أن بيانات المرضى والموتى سر من الأسرار، لا ينبغي أن يطلع عليها أحد.

ساد الصمت لثوانٍ وهو ينفث دخان سيجارته في الهواء شاعرًا بأهميته:

- أتيتم من طرف واحد من أحبابي، لا أستطيع أن أرفض له أو لكما طلبًا.

ابتسم (سامح) في تكلف، فهم ما يرمي إليه، أخرج ورقة من فئة الخمسين ودسها في يده قائلًا:

- هذه لشرب الشاي.

تطلع إليها بطرف عينه، قال بلهجة مصطنعة:

- لا داعي لذلك.

هز (سامح) رأسه قائلًا:

- هدية محبة لا أكثر.

اعتدل في جلسته وهو يردف:

- اعطوني تاريخ الوفاة وسأرى ما الذي يمكنني فعله.

أخبرته به، قام متجهًا إلى إحدى تلك الرفوف وبدأ في التقليب بين الأوراق وأنا أخبره: تم دفن الجثة ليلًا في مقابر العمود، سيدة من ناقصي الأهلية كما يقولون.

توقف عن البحث ليدير رأسه وهو يقول:
- أتقصد تلك المرأة ال.......
شرد قليلًا دون أن يكمل كلمته، تبادلنا النظرات قبل أن يسأله (سامح):
- هناك خطب ما؟
أجاب قائلًا:
- المرأة التي تسأل عنها.
- ما بها؟!
- اللهم احفظنا يا دكتور.
- ماذا تعني؟
في رعب:
- إنها شيطانة.
وأردف وهو يتلفت حوله في خوف وبصوت هامس:
- المستشفى كله يعرف عنها، تتناقل قصصها من نوبة إلى أخرى، الممرضات اعتدن على إشعال البخور والاستماع إلى القرآن خوفًا من لعنة تلك المرأة.
قالها وهو يعود إلى مكتبه، فتح درجًا أمامه وأخرج منه ورقة بيد مرتعشة، ناولها إلى (سامح) متابعًا:
- وضعت تقريرها في الدرج لشدة غرابته.
كان (سامح) قد رأى العشرات من الجثث، عمله الذي يمارسه ليل نهار، لذا كان من العجيب بالنسبة لي نظرة الانزعاج التي اعتلت وجهه فور أن طالع الورقة، ارتفع حاجباه في تعجب، هز رأسه في استنكار، ثم ناولها لي.
أخرجت هاتفي أسفل المكتب، التقطت صورة للتقرير دون أن اقرؤه، بينما كان الرجل منهمكًا في الحديث مع (سامح) فلم ينتبه لما فعلته.
(سامح) موجها كلامه للرجل:
- أغرب تقرير رأيته في حياتي.
- الجثة وصلت إلينا وقد ازرق وجهها، لم تمت غرقًا، آثار المخالب على

جسدها تشبه مخالب القطط، الأعجب أن العمال في المشرحة كانوا يسمعون أصواتًا تخرج من الثلاجة التي حفظت بها، في مرة من المرات ادعى أحدهم أنه دخل ليجدها (اللهم احفظنا) تجلس على الأرض وتنظر إليه، وبجوارها قط أسود، لا أصدق حرفًا مما يقولون، الآثار على جسدها ولون وجهها أطلقوا العنان لخيال العاملين لاختلاق هذه الأمور، عمال المشرحة يعشقون الغموض.

توجه لي بالكلام:

- تخيل أن تقضي جل وقتك وحيدًا نائمًا بجوار الموتى، ستتوهم أحداثًا لم تقع وربما لا تستطيع النوم جيدًا.

تبسم (سامح) في استخفاف:

- هذا حقيقي.

تنحنح الرجل واستدرك:

- أنت أستاذنا وتعرف تلك الأمور.

ثم تابع:

- الأمر لم ينتهِ عند ذلك الحد.

-؟؟؟

اقترب برأسه وبصوت خفيض:

- الممرضات يزعمن أنهن يرونها تجوب الطرقات، ترتدي كفنًا أسود.

سحب الورقة ووضعها بالدرج:

- سمعت الكثير من الشائعات خلال عملي هنا، ولكن شائعات تلك المرأة كانت أكثرها.

- نريد بياناتها إذا أمكن.

- لا نملك الكثير من المعلومات عنها، متشردة تبيت بالشارع ووجدها الأهالي ميتة، بلا هوية، لم يكن معها مال أو حلي ذهبية، فقط قلادة رخيصة الثمن كانت معلقة برقبتها.

قاطعته:

- هل نستطيع رؤية تلك القلادة؟؟

اعتلت وجهه نظرة ساخرة:

- بالطبع لا، عهدة بالأمانات.

تدخل (سامح):

- أعلم أن الأمر صعب.

وغمز بعينه: لكن ليس عليك.

بدا عليه التردد فبادرته:

- خدمة لن ننساها، لا بد أن لها أهلًا يريدون أن يعرفوا بموتها.

صمت هنيهة يفكر فعاجلته:

- لا تقلق، لن نسبب لك أي ضرر، سنلقي نظرة سريعة ونمضي.

وافق بعد إلحاح على مضض، لكنه اشترط أن يذهب واحد وينتظر الآخر، حتى لا نثير الشبهات.

أجرى مكالمة هاتفية سريعة، اصطحبني بعدها إلى غرفة بالطابق الثاني، طرق الباب، فتحت لنا إحدى السيدات وأدخلتنا الغرفة في سرعة وهي تتلفت حولها في حذر.

الغرفة تحتوي مكتبًا، والعديد من الخزائن المعدنية، دوّن على كلٍّ منها رقم.

الموظفة في العقد الرابع، تميل إلى البدانة، تغطي وجهها ببعض المساحيق الرخيصة للاستعاضة عن جمال بدأ يذبل، طالعتني في شك وهي تلوك العلكة بصوت مستفز ثم أخرجت مفتاحًا من درج المكتب وهي توجه الكلام لي:

- تعرف تلك المرأة أيها السيد؟؟

هززت رأسي نافيًا وأنا أقول:

- ليس بالضبط.

بتعجب سألت وهي تمصمص شفتيها:

- لِمَ تريد الاطلاع على مقتنياتها؟!

- إنها مسكينة، كنت أراها تنام في الشارع وأشفق عليها، وأردت البحث عن أهلها حتى يعلموا بوفاتها.

غمغمت في استنكار:

- مسكينة!!، لم تجد غير تلك المرأة لتبحث عن أهلها؟!

لم أرد فنهضت في تكاسل، اتجهت إلى واحدة من تلك الخزائن وفتحتها، أخرجت كيسًا بلاستيكيًا، وضعته على المكتب أمامي، ثم فتحته في هدوء وهي تخرج منه تلك القلادة زرقاء اللون، ناولتني القلادة فالتقطها وأنا أتفحصها مفكرًا

قلادة زرقاء!!!

ما قصة هذه المرأة مع اللون الأزرق؟

اللون الأزرق ارتبط بقناعات مختلفة على مر الحضارات.

عند القدماء المصريون ارتبط اللون الأزرق بلون الحارس، وفي الأسطورة أن عين (حورس) الزرقاء هي التي مكنته من قتل (ست) إله الشر عندهم، كما أنه كان شائعًا في ثقافتهم صناعة التمائم والخرز من اللون الأزرق..

في بلاد الرافدين اعتقدوا أنه حجر كريم محاط بأسرار إلهية، وعند العرب قديمًا كانوا يقولون إنه يمنع الضرر والحسد ويطرد الشر.

ولما جاء الإسلام كان الأزرق من الألوان غير المحببة، أعده بعضهم أنه هالة من الضوء حول الجن بحسب اعتقادهم.

على كلٍّ لنترك ذلك جانبًا ونعود إلى مطالعة تلك القلادة الموجودة في يدي..

كانت كبيرة الحجم بشكل ملحوظ، عليها نقوش غريبة وأرقام غير مفهومة، بطريقة ما بدت مألوفة لدي، أمعنت النظر إليها أحاول التذكر..

هذه النقوش والأرقام رأيتها قبلًا، بنفس الترتيب والتنسيق!!

اتسعت عيناي في ذهول حينما تذكرت، لكني حاولت الحفاظ على هدوئي، حتى لا أثير ريبتهم، تلك النقوش والأرقام هي نفسها التي كانت على اللعبة، اللعبة الملعونة التي أودت بي لهذا المكان وذلك الوضع.

قلبتها في يدي في حيرة، حينما لمست أصابعي زرًّا خفيًّا على جانبيها يشبه زر الساعة لكنه أصغر حجمًا، أخرجت هاتفي وتظاهرت بتصويرها وقد أعطيتهم ظهري، كانوا منشغلين في نقاش بالحديث عن المستشفى وأحوالها، ضغطت الزر لتنفتح القلادة وينكشف داخلها قطعة معدنية صغيرة، التقطتها في هدوء وأنا أعيدها إلى هيئتها الأولى، وأدس القطعة المعدنية بجيبي.

شكرت الموظفة وأنا أعيدها إليها، ثم نهضت خارجًا من الغرفة.

القط الأسود يقف هناك في الزاوية، ينظر إليّ نظرة ذات مغزى، رأته الموظفة، قالت في استهجان موجهة كلامها لزميلها:

- لا أدري ما حكاية هذا القطّ، يأتي يوميًّا ويقف أمام الباب منتبهًا كأنه يراقب شيئًا.

تبسم زميلها وهو يقول في تهكم:

- زادت هذه الظاهرة هنا، الكلاب والقطط تروح وتجيء في الأروقة بكل راحة، يبدو أنه سيصير مستشفى بيطريًّا.

- سنرتاح على الأقل من مشاكل المرضى وأهاليهم.

تبادلا الضحكات وهو يشكرها مودعًا وانطلقنا إلى مكتبه لنشكره ونمضي في طريقنا..

غادرنا المستشفى.

(سامح) وهو يرمقني في شك:

- لا بد أن أفهم ما الذي يحدث!!، وما علاقتك بتلك المرأة؟

تظاهرت بالغباء وأنا أجيبه:

- ماذا تعني؟ أخبرتك سابقًا، امرأة مسكينة أساعدها.

في استهجان:

- (شريف) أنت لا تخاطب ساذجًا.

- لا أستطيع إخبارك.

- لِمَ؟

هززت رأسي:

- لا أستطيع إخبارك بهذا أيضًا.

- غايتي مساندتك فالأمر يبدو خطيرًا.

- هو كذلك.

- كفاك حماقة.

- أفعل ذلك خوفًا عليك.

- هل تعي ما تفعله؟!

- سأكون كاذبًا إذا جزمت بذلك، لكنني أطلب منك ألا تضغط عليّ، لن أبوح لك بشيء.

بدا عليه الضيق:

- ألستُ أخًا لك؟؟ لم تريد تحمل ذلك وحدك؟

لم أرد فأكمل:

- سأتركك لشأنك، لن أضغط عليك، سأنتظرك حتى تأتي وتخبرني.

أشحت بوجهي والتزمت الصمت فغمغم بعصبية:

- اعتقدت أنني أقرب إليك من هذا.

قالها وتركني وكلامه يعصر قلبي..

أعلم أنه غاضب مني، أتفهم إحباطه ولكني لن أورطه، لست بطلًا أو خارقًا لأمضي في ذلك الطريق وحدي، أنا في أمسّ الحاجة إلى العون من الأهل والأصدقاء، لكني أدرك أن كل من يتدخل معي سيتورط، الأمر خطير ولا أدري ما عواقبه، يكفي على الأقل ما حدث مع (حسين) حتى الآن.

عدت إلى البيت، منهكًا تمامًا، سأحصل على حمام ساخن، وأشرب كوبًا من القرفة الساخنة، ثم أخلد للنوم، أحتاج لنيل قسط وافر من الراحة..

أحب الشعور بالاسترخاء، قطرات الماء الدافئ تتساقط على جسدي المنهك فتدغدغه، وعلى رأسي المليء بالأفكار فتريحه.

استلقيت في أرضية حوض الاستحمام (البانيو)، أخذت قطعة من الملابس

فكورتها وأنا أضعها تحت رأسي كالوسادة، وتركت الماء الدافئ يداعب جسدي، وشعور بالمتعة يغمر كياني، لم أدرِ كم مضى وأنا في تلك الحالة، لكنني انتبهت على صوت طرق خفيف على الباب، أصغيت السمع فتوقف، ربما كنت أتوهم، عدت للاسترخاء ثانية ولم يمضِ وقتٌ طويلٌ قبل أن يعود الطرق من جديد، طرق منتظم الشدة والإيقاع، توقعت أنها أمي أو أختي فصحت بصوت عال:

- من هناك؟

لم يجب أحد، ربما طرق الباب أحدهم وانصرف، مضت بضع ثوان قبل أن يعود الطرق للمرة الثالثة، هذه المرة كان عاليًا وواضحًا..

- يا من تفعل هذا، لست في مزاج جيد للمزاح.

حدثتني نفسي بأنها تلك الحمقاء الصغيرة، هي الوحيدة التي تهوى المقالب، سأوسعها ضربًا على قفاها حتى تذهب لتشتكي لأمي...

قلتها في سري، وانتابتني ابتسامة ساخرة وأنا أتخيلها وهي تجري متذمرةً تشتكيني لأمي، أحبها وأحب مشاكستها ولقد كنت منشغلًا عنها مؤخرًا....

انتصبت واقفًا وأنا أنصت للباب في تحفز، ربطت المنشفة حول خصري، حينما طرق الباب ثانية فتحته في عنف لأقبض على ذلك العابث متلبسًا، لا أحد أمام الباب، تحركت خطوتين خارجًا، ناديت على أمي ثم اتجهت إلى غرفتها، طرقت الباب مرتين بلا مجيب ففتحته، لم يكن هناك أحد وقد رتبت الغرفة في عناية، تذكرت حينها أن أمي أخبرتني بذهابها إلى خالتي بصحبة أختي الصغيرة، نسيت ذلك جراء الضغط النفسي الذي أرزح تحته...

إذا لم تكن أمي أو أختي ولا أحد بالمنزل فمن طرق الباب؟!

تسلل هذا الخاطر إلى عقلي، شعرت بقشعريرة باردة وانتصب شعر رأسي وتملكني الخوف، بعد شعوري بأنني وحيد مع ذلك الشيء، ارتديت ملابسي سريعًا، وخرجت مهرولًا إلى غرفتي، أغلقت بابها الذي أعلم أنه لن يحميني، لكنني فعلت ذلك لأطمئن نفسيًا، ثم دسست جسدي أسفل الغطاء في سريري، بعد أن قمت بتشغيل سورة (البقرة) وقد صدع صوت (المنشاوي) قويًّا في جنبات

البيت، ما أ عطاني شعورًا بالراحة رحت بعدها في سبات عميق.

أجلس في غرفتي بعدما استيقظت، أحاول الوصول إلى الخطوة التالية، تذكرت القطعة المعدنية داخل القلادة، أحضرتها من جيب بنطالي وأنا أطالعها في اهتمام، غريبة الشكل، تشبه النجمة السداسية ولم أصادف شيئًا كهذا قبلًا، لكن استرعى انتباهي أن ذلك النقش الذي رأيته سابقًا على القلادة واللعبة كان منقوشًا عليها، لها أهمية ما لا أدري ما هي في الوقت الحالي، لكني سأحتفظ بها حتى أعرف سرها.

تذكرت تقرير الوفاة الذي صوّرته، أخرجت هاتفي وتصفحت الصورة، المعلومات ليست كثيرة، المعلومة الأهم التي يمكنني البدء منها مكان الوفاة، شارع الملك الصالح بجوار كشك الحرية.

ارتديت ملابسي على عجل متجهًا إلى العنوان المدون بالورقة..

أسمعك تقول ما الذي تفعله؟؟ لماذا لا تذهب إلى الشرطة وتريح نفسك من كل هذا؟! لديهم إمكانيات وخبرات أفضل منك، ولماذا تخفي ما حدث على أهل (حسين)؟

راودتني تلك الخواطر كثيرًا، لا أعلم ما الذي سأقوله، وما هي ردة فعلهم، هل أذهب إلى الشرطة بكل بساطة وأحكي لهم أن جثة لامرأة زرقاء تلبس كفنا أسودَ خطفت صديقي وأخفته بالمقبرة؟

هل سيصدقون كلامي عن القلادة الزرقاء والقط الأسود؟

سيقولون عني مجنونًا على أفضل تقدير، وربما تمادى أحدهم فحرر لي محضرًا ببلاغ كاذب، أو طلب إرسالي إلى المستشفى للكشف على قواي العقلية، حتى لو صدقوني فلا أعتقد أن ذلك في مصلحة (حسين) أو مصلحتي، نحن لا نتعامل هنا مع كائن بشرى.

حسمت امري، سأكمل الطريق مهما كان الثمن..

*****

(٩)

مجبورة

- **(كشك الحرية)**

قلتها وأنا اتطلع إلى ذلك المكان الصغير على الجانب الآخر من الطريق، عبرت الشارع مباشرة باتجاهه، وقد اختمرت حيلة بسيطة برأسي.

طلبت زجاجة من المياه الغازية، نقدت الرجل ثمنها وانتحيت جانبًا، رشفت منها في بطء وأنا أفكر في الطريقة المثلى التي يجب انتهاجها لفتح حوار مع الرجل، أظنه في الستين من عمره أو يزيد قليلًا، يرتدي جلبابًا رصاصيًّا وطاقية بيضاء وعوينات بإطار سميك، انشغل بمطالعة ذلك التلفاز الصغير الذي وضع أمامه مباشرة يتابع إحدى المباريات في انهماك ملحوظ.

محاولًا جذب انتباهه سألته:

- الأهلي والزمالك؟

أجابني دون أن ينظر:

- مباراة قديمة، أحبها وأتابعها في كل مرة تعاد فيها.

التقطت طرف الحديث:

- القديم دائمًا أفضل.

هز رأسه موافقًا:

- يرحم الله زمان البركة القديم، تغير كل شيء، الناس تغيرت والأخلاق تغيرت والحياة قاسية لا ترحم.

هززت رأسي موافقًا فتابع:

- يلهثون خلف التكنولوجيا التي ما جلبت لنا إلا الشقاء، فرقت العائلات وشغلتهم بما لا نفع فيه، أشعر بالشفقة على تلك الأجيال التي حبست في الهواتف.

في مرارة تابع وكأنني أثرت شجونه: لم يعد هناك تقدير أو احترام للكبير.

- أعطاك الله الصحة يا حاج، يبدو أنك تعمل هنا منذ زمن.

طالعني في شرود كمن يتذكر:

- أكثر من خمسة وعشرين عامًا.

التقطت طرف الخيط:

- عاصرت الكثير من الأحداث هنا؟؟

زاغت عيناه وسرح بعقله:

- وقت طويل به الكثير من الأحداث بالطبع.

- سمعت أن سيدة ماتت بالقرب من هذا المكان الشهر الفائت، لعلك كنت حاضرًا أو تعرف عن هذا الأمر؟

نظر إلي وهو يفحصني بعينه متشككًا، أتوقع ما يدور برأسه في تلك اللحظة، يستبعد كوني مخبرًا أو شرطيًا لصغر سني، الأرجح أنه يحسبني فضوليًّا سمعت عن الأمر وأردت أن أثرثر بشأنه:

- أنت صحفي؟

قالها وهو ينظر إليّ بطرف عينه في ترقب، رددت الكلمة وأنا أتصنع التعجب وقد سألته:

- لمَ تقول ذلك؟؟

- تحاول فتح حوار معي، اهتمامك بأمر تلك المرأة ليس بريئًا، من الممكن أن تكون واحد من أولئك الصحفيين الشباب وتسعى لعمل تحقيق عن الأمر.

- أنا مهتم بالأمر كما تقول لكنني لست صحفيًّا، فاعل خير لا أكثر.

قطب جبينه وضيق عينيه فتابعت:

- أردت أن أعثر على أهل تلك المرأة لأبلغهم بوفاتها.

لانت ملامحه، هدأت حدته، أخذ نفسًا عميقًا وزفره في قوة.

كلمة فاعل خير تفتح الأبواب المغلقة وتلين القلوب.

الناس على اختلافهم يحبون فعل الخير، أو على الأقل لا يمنعون فاعله، ثم إنني لا أكذب هنا، أفعل ذلك كله للخير فأنا أريد إنقاذ صديقي وغلق باب الشرور هذا...

هدأت نبرة صوته قائلًا:

- كنت حاضرًا حين حدث هذا الأمر، رأيتها أكثر من مرة تجلس في هذا المكان.

كانت زجاجة المياه الغازية على وشك الانتهاء، طلبت منه قطعة من الشوكولاتة غالية الثمن طمعًا في الحصول على معلومات أكثر وعدت لأسأله:

- ألا يعلم أحدٌ من هي؟ أو أين كانت تسكن؟

- لا نعلم الكثير عنها، سمعت أحد حراس البنايات يذكر أن قريبًا له تعرف عليها حين زاره في مرة من المرات، كان هذا سببًا كافيًا لتركها تجلس هنا فترات طويلة دون أن نطردها.

- أين أستطيع إيجاد ذلك الرجل؟

أطل برأسه وهو يشير إلى بناية قريبة:

- عم حسني، ستجده في تلك البناية، هو حارسها، ما عليك إلا أن تصل للباب وتصيح عليه، غرفته بالطابق الأرضي.

شكرته وتوجهت إلى تلك البناية متوسطة القدم، الأشجار تحيط بها من كل جانب، دلفت إلى المدخل وأنا أتطلع يمينًا ويسارًا بحثًا عن الغرفة، ثمة ممر صغير بجوار الدرج يفضي إلى باب لغرفة جانبية خمنت أنها هي، اقتربت منها في توجس وناديت:

- عم حسني... عم حسني.

كررتها أكثر من مرة ولا مجيب، اقتربت من الباب المغلق وطرقته، انتظرت قليلًا، خرج رجل عجوز بجلباب كحلي اللون، لف رأسه بتلك العمامة المميزة لأهل الصعيد فبادرته:

- السلام عليكم.

- عليكم السلام!

- أريد عم (حسني) في موضوع مهم.

- بشأن ماذا؟

قالها وهو يرمقني متفحصًا، اقترب مني خطوتين ومد يده لمصافحتي، صافحته قائلًا:

- أمر مهم.

خمنت أن عمره قريب من السبعين، ذو بشرة سمراء، التجاعيد تغزو يديه ووجهه ورقبته، نحل جسده يحكي أثر السنين القاسي عليه.

تابعت:

- لا تعرفني جيدًا، يبدو أنك رجل طيب ولن تتأخر في مساعدتي.

- لو استطعت فلن أتأخر...

قالها وهو يدعوني للجلوس على أريكة خشبية وضعت على جانب الحائط، ونظرات الحيرة لا تزال بادية على وجهه...

بلا مقدمات انطلقت أقص عليه كل ما حدث..

انتهيت من سرد الأحداث كلها دفعة واحدة، قلب كفًّا بكف وهو يحوقل.

ساد الصمت لدقيقة كاملة ثم اعتدل في جلسته وقد وضع قدمه أسفل منه قائلًا:

- لِمَ قصصت تلك الأحداث كلها؟! وكيف لي أن أساعدك؟؟

- لا أعلم، أحسست براحة كبيرة بعدما فعلت، ثقل ظهري بتلك الضغوط وأردت أن أشارك أحدًا لا يتداخل مع الأحداث، أو لعلي خشيت أن لا تساعدني فأردت أن أطلعك على الأمر لتدرك خطورة ما أنا بصدده.

اقتربت فتاة صغيرة وهي تحمل(صينية) وضع عليها كوبان من الشاي، وضعتهما أمامنا وانصرفت.

ناولني كوبًا والتقط الآخر، أسند ظهره إلى الأريكة وأراح يده جانبًا فيما بدا عليه التفكير العميق...

التزمت الصمت حتى لا أقطع حبل أفكاره، ارتشف رشفة صغيرة من الكوب خاصته، وهو يصدر صوتًا قائلًا:

- المرأة كانت معتادة على المجيء هنا، دأبت على النوم تحت تلك الشجرة، سمعت من حراس البنايات أنهم شاهدوها في أماكن متفرقة محيطة، وبما أني رجل صعيدي وأعرف طباعنا فأستطيع القول إنها كانت تحمل ثأرًا، كانت تحتمي بالشارع لتختلط بالناس حتى تشعر بالأمان.

وأكمل:

- كانت منعزلة لا تخالط أحدًا، لم تسمح لأحد بالاقتراب منها حتى حيوانات الشارع، رأيتها ذات يوم بأم عيني تطارد قطًّا أسودَ ممسكة بعصا غليظة بيدها.

- قط أسود؟!

- نعم.

ثم انتبه ولمعت عيناه:

- ألا يذكرك ذلك القط بشيء، يستحيل أن تكون كل تلك الشواهد منفصلة عن بعضها البعض.

هززت رأسي بأن نعم وسألته:

- لا شيء آخر مميز يمكن أن يفيدنا؟

ضيق عينيه:

- ابن عمي كان يزورني منذ فترة، تصادف وجودها وتعرف عليها، قال إنها جارته، سألته عن أهلها فقال إنها منعزلة وحيدة ولا أحد يعرف قصتها.

- أريد الذهاب إلى بيتها وأريد منك العنوان.

- ما الفائدة؟ صاحبته قد ماتت؟

- ربما وجدت ما يفيدني، أبحث عن إبرة في كومة قش وأريد بذل جهدي كاملًا.

- ما هي خطتك بعد أن تحصل على العنوان؟ تذهب فتكسر غرفتها ببساطة وتعتقد أنك ستمضي في طريقك بلا مشاكل!! الأمر يحتاج إلى تخطيط قبل أن نذهب.

- نذهب! قلتها في تعجب.

- لا تعتقد أنني سأتركك تذهب وحدك، أنا رجل كبير السن ورأيت الكثير من تلك الأشياء ولم يعد شيء يخيفني، أشعر بالمسئولية تجاهك كأنك ولدي، قصصت علي ما حدث كاملًا دون سابق معرفة وما هذا إلا لحكمة لا يعلمها إلا الله.

كان كلامه مقنعًا وأنا لا أملك حق القبول أو الرفض على أية حال.
وأكمل:
- سأتصل بقريبي وأرتب اللقاء لنزور ذلك البيت ونرى ما الذي يمكننا فعله.
شكرته، وودعته بعدما اتفقنا على خطوتنا التالية.
غادرت المكان غير آبهٍ بذلك القط الأسود الواقف عند موقع الشجرة حيث ماتت المرأة كأني اعتدت وجوده أو تحركه معي كظلي.

الساعة تقترب من العاشرة مساءً حين تقابلنا، اقترح (عبد الرحيم) قريب عم (حسني) ذلك الوقت حتى لا نثير القلق في ذلك الحي الشعبي حيث يعرف الناس بعضهم بعضًا، بدأنا السير في الطرقات والأزقة ما يقارب نصف الساعة حتى وصلنا إلى مكان ما ليشير إليه (عبد الرحيم):
- بيت المرأة.
بيت من دور واحد، ليس بيتًا لكنه غرفة واحدة للدقة، معزولة عن باقي الحي بشكل غريب، قريبة من قضبان السكة الحديدية، مظلمة، كئيبة، والخرائب تحيط بها من كل جانب، لا أعلم ما الذي يجعل شخصًا يسكن وحده في تلك البقعة النائية، لكني توقفت عن التعجب حول أي أمر يخص تلك المرأة.
كنا على بعد خطوتين من الباب حينما قال (عبد الرحيم):
- ذهبت غير مأسوف عليها.
- لمَ تقول هذا؟
- هذه المرأة مجهولة ذات رهبة، الجميع كانوا يخافونها ويتجنبونها، أطفال الحي أحجموا عن المرور من هنا، ما إن تُطل حتى يسارع الجميع بالهرب من أمامها.
ثم تطلع إلى الخرائب حوله وقال:
- منطقة خرائب كما ترى، كانت تعج بالكلاب والقطط سابقًا، اختفت بشكل غريب بعد ظهور تلك المرأة.

باب الغرفة المعدني الذي يشبه أبواب مستودعات التخزين، وضع عليه قفل صغير جدًّا، وهذا منطقي لسمعة المرأة المخيفة، ولوجود البيت على الأطراف، الموقع مقفر لا يثير الأطماع أو يسيل لعاب اللصوص.

أخرج (عبد الرحيم) مفكًا كان معه، اقترب من الباب، بضربة واحدة نزع القفل، ثم بدأ في فتح الباب ببطء وهو يصدر صريرًا مزعجًا، لم يكد يفتحه حتى انبعثت رائحة كريهة من الداخل تزكم الأنوف، عطن قوي منتن كرائحة الميتة، أتعرف تلك الرائحة التي تشمها في مطبخك أو غرفتك ثم تبحث لتجد ذلك الفأر الصغير قد مات خلف الدولاب أو الموقد وترك رائحته ذكرى لأهل البيت، كان الأمر أشد سوءًا من ذلك..

أضأت كشاف هاتفي وكذا فعل (عبد الرحيم) متقمصين دور رجال المباحث حتى لا نلفت الأنظار إلينا، لا أدري أنظار من ستلتفت إلينا في تلك البقعة إلا أن الحذر مطلوب...

على ضوء الكشاف بدأت محتويات الغرفة في الظهور، الغرفة صغيرة نوعًا وتحوي القليل من الأثاث، أريكة متوسطة الحجم وضع عليها غطاء صوفي (بطانية)، منضدة صغيرة وضع عليها بعض الأكواب والأطباق وتلك......

غاصت قدماي في شيء لين، وجهت ضوء الكشاف إلى الأرض، حينما صرخت في ارتياع.. فأسفل قدمي تمامًا كان هناك العديد من الجثث.

جثث القطط...

فهمت الآن سر تلك الرائحة النتنة مع أثار تلك المذبحة الكبيرة وقد تجمدت الدماء حول الجثث فصنعت دائرة حول كل جثة، لم تكن مذبوحة أو مقطوعة الأوصال، كانت تحوي الكثير من آثار المخالب والخدوش، كأنهم قتلوا بعضهم البعض نهشًا وخدشًا، والدماء تملأ الحوائط والأركان.

اضطربت معدتي وشعور بالغثيان يضربني حتى أوشكت على القيء، تراجعت خطوتين، تمتم عم (حسني) بآيات من القرآن الكريم، صاح باشمئزاز:

- أعوذ بالله، كانت تمارس السحر ولا شك.

- لعنة الله عليها..

قالها (عبد الرحيم) وهو يبصق على الأرض فأوقفه عم حسنى:

- دعنا ننجز مهمتنا، نريد الذهاب من هذا المكان الملعون سريعًا.

الطلاسم الغريبة تنتشر على الجدران، المثير للدهشة أن الرسوم المنقوشة على القلادة وعلى اللعبة صاحبة النصيب الأوفر من تلك النقوش..

واصلنا البحث الحثيث بلا جدوى، ظاهريًّا لا شيء هنا يستحق الاهتمام..

- لا فائدة مما نفعل..

قالها عم (حسني) وقد بدت خيبة الأمل على وجهه، فأومأ (عبد الرحيم) برأسه قائلا:

- الغرفة صغيرة، فتشناها شبرًا شبرا، تلك الخبيثة أخفت ما لديها جيدًا.

أدرت الكشاف بأرجاء الغرفة في محاولة أخيرة يائسة، اقتربت من الأريكة، رفعت (المرتبة) الصغيرة الموضوعة عليها وأنا أدعو الله أن تكون المرأة لجأت لتلك الحيلة القديمة بإخفاء الأشياء المهمة أسفل الفراش.

لم أجد شيئًا، قلبتها يمينًا ويسارًا بلا فائدة، تملكني الغضب فألقيت بها في يأس لتسقط على الأرض.

- لا يوجد شيء هنا فعلًا...

قلتها وأنا أنفخ في غيظ وأتحرك تجاه الباب.

اقترب عم (حسني) من الأريكة الخشبية جالسًا القرفصاء، أمر (عبد الرحيم) بتوجيه الكشاف نحو نقطة ما، رفع لوحًا خشبيًّا فانكشفت تحته فجوة صغيرة، تحوي أوراقًا مطوية تشبه الأحجبة التي يصنعها السحرة.

قطع متناثرة من شعور مختلفة الملمس، وورقة مطوية موضوعة بكيس بلاستيكي.

التقطها عم (حسني) وأخرجها من الكيس، كانت صورة ضوئية باهتة اللون كتب على مقدمتها (الجمهورية العربية المتحدة) والتي تعرف عليها سريعًا.

- بطاقة قديمة.
- قديمة منذ متى؟
- ربما من الخمسينيات، هيئتها توحي بأنها من أيام ما بعد الثورة.
اقتربت منه وأنا أتفحصها لكنها كانت بلا هيئة واضحة فقلت في إحباط:
- قديمة مهترئة والصورة باهتة.
- هي ذاتها المرأة التي نبحث عنها.
ناولها عم (حسني) إلى (عبد الرحيم) فطالعها مليًّا قائلًا:
- ملامحها قريبة لكنها أصغر سنًّا.
- واثق أنها هي.

كانت البيانات المسجلة بتلك البطاقة كالتالي:
الاسم: مجبورة عبد المقصود حسانين
اسم الوالد: عبد المقصود اللقب أو الجد: حسانين
اسم الوالدة ولقبها:-------------
تاريخ ومحل الميلاد: ١٩٤٥/٧/١٣ بني سويف
محل العمل:--------------
محل الإقامة: كوم الغلال. اهناسيا. بني سويف...
وهكذا كنت أملك قليلًا من المعلومات عن تلك المرأة، ويبقى معرفة قصتها، ظفرت بصيدي الثمين ويجب الابتعاد عن ذلك المكان المشئوم... سريعًا.

*****

(١٠)

برهان

الظلام معتم، لا وجود لقمر، ليلة من الليالي السوداء، أقف وحيدًا في أرض شاسعة مترامية الأطراف، لا مَعلم بها أو بيت، ثمة نار على مد البصر، أتحرك بصعوبة بقدمين ثقيلتين كأنهما قيدا بقيد خفي، أقترب منها ويلوح بجانبها بيوت غريبة الشكل لها قباب وأبواب، أقترب أكثر فأتبين أنها ليست بيوتًا، شواهد قبور تراصت على الجانبين ويتفرع منها العديد من الدروب، أقف على مفترقها ولا أدري ما الذي عليّ فعله.

سمعت تلك الحشرجة... أعرفها، الصوت يعلو بشكل متصاعد من داخل القبور، يتحول من همهمة ليبدو كالزمجرة، على أضواء اللهب المتراقص أرى أولئك النسوة يخرجن من أبواب المقابر تباعًا، الوجه الأزرق والعيون الجاحظة وقد ارتدين أكفانًا سوداء، وهن يتجهن نحوي في بطء، التفت يمينًا ويسارًا بلا فائدة، أحاول الهرب بلا جدوى، أحطن بي إحاطة السوار بالمعصم من كل جانب وقطعن على سبيل الفرار، يتقدمن في إصرار وقد بتن على مقربة مني، على مسافة تقترب من المتر توقف جميعهن في وقت واحد، شكلن دائرة أقف وسطها، واصلت إحداهن الاقتراب، أمسكتني من رقبتي، ضغطت عليها في قوة قبل أن تدفعني لأسقط على ظهري، سقطت مفزوعًا، حاولت النهوض لأجد النسوة قد اختفين وقد تغير المشهد تمامًا...

لوهلة لم أستوعب أين أنا، ثم أدركت سريعًا أنني أغرق في الماء، وشعور بضيق النفس يداهمني، الماء يدخل إلى فمي وأنفي بسرعة جنونية، يغمر رأسي، أهوى إلى القاع، صرخت مرارًا بلا مجيب، بح صوتي وانقطع فأضحى غمغمة مكتومة، ببطء أقترب من القاع وقد توقفت عن الصراخ يائسًا بعدما أيقنت أنها النهاية، أبصرت جثة هامدة على القاع، وصرت على مقربة منها لتتسع عيناي في دهشة... دهشة سببها أنني أعرف تلك الجثة... جثة (حسين).

فتحت الجثة عينيها بغتة، هجمت عليّ في شراسة وهي تتشبث بقدمي في استماتة، باءت كل محاولاتي للفرار بالفشل، أفتح فمي وأعاود الصراخ، أصرخ... أصرخ... أصرخ.

استيقظت على صوت أمي وهي تهزني في عنف، فتحت عيني بصعوبة وهي تقول في لهفة:

- شريف.. شريف..

بأنفاس متهدجة وعيون زائغة غمغمت:

- أين أنا؟!

- كنت تحلم بكابوس، سمعت صوت صراخك فأسرعت إليك.

اعتدلت جالسًا، ألهث في خوف، وأمسح بقايا لعابي السائل على خدي:

- أثقلت في العشاء قليلًا.

تطلعت نحوي في شفقة:

- سآتي لك بشيخ من الشيوخ ليرقيك، حالك لا يسرني، وهناك ما تخفيه عني.

- لا تقلقي يا أمي أنا بخير.

- على الأقل حاول الحفاظ على صلواتك وأذكارك فهي التي ستحميك.

ابتسمت بصعوبة حتى أطمئنها وهززت رأسي موافقًا، ثم أقبلت أقبل يدها واطلب منها الدعاء

رن جرس الهاتف وكان المتصل (سامح) فأجبت ليأتيني صوته:

- استيقظ أيها الكسول وكفاك خمولًا.

زفرت بضيق:

- كيف حالك؟

- صوتك يوحي أنك لست في مزاج رائق.

- كابوس جثم على صدري وأقلق منامي.

- كل هذا بسبب سرك الغامض أيها المأفون.

- دعك من سري وقل لي، ما زلت غاضبًا مني؟

- غاضب لن تعبر عما يعتمل في صدري تجاهك، سنؤجل الحساب ليوم آخر، انتبه معي فلدي شيء مهم أخبرك به.

- أنا معك.

قلتها في جدية وأنا أنصت له باهتمام فتابع:

- بعد لقائنا الأخير انتابني القلق، هناك شيء غامض غير مريح في تلك الحادثة، لذا عدت إلى المستشفى مرة أخرى بعدما رحلت، التقطت صورًا لتلك القلادة وللتقرير الخاص بالوفاة، هاتفت أحد أصدقائي ورشح لي أحد معارفه المهتم بذلك النوع من الأمور، توسط لي عنده لمعرفة الأسرار في تلك القلادة والحق أن الرجل كان مهتمًّا واتصل بي.

- ثم؟؟

- يريد مقابلتنا اليوم.

كنت أنصت إليه وأنا أفكر في صنيعه، هل ستكون تلك الزيارة مفيدة أم سيضيع وقتنا سدى؟! الأمر يستحق وقد بذل (سامح) جهدًا يستحق الشكر رغم أنني لم أكن أريد توريطه.

- هيا أيها الرجل، قم واغسل وجهك واستعد، لدينا طريق سفر والرجل في انتظارنا.

- طريق سفر؟!

- سنذهب إليه في القاهرة.

لم يترك لي فرصة للرفض أو التفكير، أعلم أنني ضايقته في المرة الأولى ولا أريد تكرار ذلك...

أغلقت الهاتف، أشعر بألم خفيف في رقبتي، هززت رأسي في كسل وأنا أنهض واقفًا، تحركت ناحية المرآة، طالعت وجهي وقد بدت بضع شعيرات بيضاء تغزو رأسي، كنت لا أزال أضع يدي على موضع الألم وحينما أبعدتها بدت ندبة زرقاء.. تمامًا حيث كانت تخنقني المرأة.

كان كابوسًا، لكنه كان كابوسًا حقيقيًّا... حقيقيًا جدًا........

في الطريق، علمت من (سامح) أن الرجل يعمل أستاذًا في اللغات القديمة بجامعة عين شمس، مهتم بالظواهر الغريبة أو ما يطلقون عليه علم الماورائيات..

وصلنا مشارف القاهرة، اتجهنا إلى إحدى الفيلات بمنطقة قريبة من الأهرام تسمى (المريوطية) حيث يقطن، الفيلا قديمة نوعًا ما، تحيطها حديقة كثيفة تحجبها عن عيون الفضوليين، ويبدو من طرازها الكلاسيكي أنها لأسرة عريقة من فترة الملكية.

على بابها الخارجي لوحة كتب عليها (فيلا الجنزوري)، بجانب اللوحة يقبع ذلك الجهاز المعدني (الدكتافون)، ترجل (سامح) من السيارة وهو يضغط أحد الأزرار ثم عاد إلى مقعده منتظرًا، مضت دقيقة قبل أن يفتح الباب ويخرج الحارس وهو يرتدي جلبابًا:

- أهلا وسهلا يا بهوات.

رددنا تحيته وفي احترام تساءل:

- كيف يمكنني خدمتكما؟؟

- لدينا موعد مع الدكتور (برهان).

- أتشرف بحضرتك؟

- الدكتور (سامح) طرف دكتور (محمدي).

اقترب الرجل من الدكتافون، خاطب أحدًا بالداخل، ثم أسرع فاتحًا الباب على مصراعيه داعيًا إيانا للدخول.

الحديقة مرتبة بشكل متناسق جميل، رغم أن عوامل القدم تظهر جليًا على كل ركن من أركانها، على باب الفيلا يقف أحدهم في انتظارنا، يرتدي بدلة رسمية سوداء اللون قديمة الطراز بقميص ذي ياقة كبيرة وقفازات بيضاء، رحب بنا في تهذيب، وقدم إلينا نفسه على أنه رئيس الخدم.

رغم دقة الموقف حانت مني ابتسامة ساخرة وأنا أطرق برأسي إلى الأرض كي لا يلاحظ، فقد ذكرني ما يحدث بتلك الأفلام القديمة في بدايات سينما الأبيض والأسود وكأنك ترى فيلمًا من الثلاثينيات وأنت الآن في فيلا (الباشا) صاحب العزبة.

اقتادنا بوقار وبخطوات منتظمة داخل ردهات ذلك البيت الذي يوحي كل شبر فيه بالفخامة والأصالة، وصلنا إلى إحدى الغرف وهو يدعونا إلى الجلوس، طلب منا انتظار قدوم الدكتور ثم استأذن للانصراف في أدب..

نظرت إلى (سامح) الذي كان يتطلع إلى غرفة المكتب في انبهار وهو يقول:

- لا بد أن دكتورهم هو الباشا في فيلم غزل البنات.

وباستخفاف تابع:

- ما كل هذه الكتب؟ كأن الرجل لا يفعل شيئًا سوى القراءة!

قالها وهو ينهض من كرسيه ويقترب من المكتبة ليلتقط كتابًا أخذ يقلب فيه بلا هدف، بغيظ مكتوم خاطبته وأنا أضغط على كلماتي:

- تحلَّ بآداب الضيافة وارجع إلى كرسيك.

- لا تقلق أيها المتزمت فلن أسرق شيئًا.

- إذا دخل الرجل علينا وأنت تعبث بأغراضه فربما تضايق.

- لن يتضايق أيها الموتور، أتصفحها بشكل عادي.

ثم نظر إلى السقف وهو يقول:

- ربما يراقبنا الآن في إحدى كاميراته السرية.

أنهى كلامه وهو يضحك رافعًا يده وكأنه يخاطب الكاميرا:

- بريء أيها القاضي.

حاولت إيقافه، أخبرته أن يعود إلى مكانه حتى لا يسبب لنا الإحراج، لكن وقت التحذير كان قد فات فقد دخل أحدهم وهو يقول بنبرة قوية:

- أهلًا بكما أيها السادة.

ارتبك (سامح) وترك الكتاب من يده وأعاده مكانه بسرعة. في تلعثم قال:

- أهلًا بك يا دكتور، اغفر لي تطفلي.

لم يعلق، تقدم الرجل نحوي وهو يتحرك في تؤدة فمددت يدي مصافحًا وكذلك فعل (سامح)، جلس على مقعد وثير بجواره مدفأة خشبية عتيقة الطراز، أشار إلينا بيده لنجلس فجلست وأنا أتطلع إليه في انبهار..

انبهار سببه أن الرجل قد خالف كل توقعاتي، اعتقدت بعد رؤيتي لتلك الكتب والمراجع وكونه استاذًا للغات القديمة أنني سأقابل رجلًا طاعنًا في السن أشيب الرأس يمشي مستندًا على عصاه، كان عكس ذلك تمامًا...

عمره بين الأربعين والخمسين في تقديري، وسيم الملامح، أنيق الملابس بشكل مستفز، يمتلك شاربًا رفيعًا يشبه شارب ستيفن روستي، وشعرًا أسودَ فاحمًا ناعمًا تم تصفيفه والاعتناء به جيدًا، عينين متقدتين حادتين كعيني الذئب، رغم شكله البريء ظاهريًّا فلا أدري لما ذكرتني هيئته بشياطين القرون الوسطى إذا تنكرت في هيئة بشري.

أسند ظهره على المقعد، وضع قدمًا فوق الأخرى، وتحت قدميه رقد كلبٌ أسود ضخم البنية لم ألمحه يصاحبه، أطلتُ النظر إليه في ريبة وأنا أتساءل في عقلي متى جاء هذا الكلب! طردت الفكرة من رأسي سريعًا فيما تطلع إليّ كأنه يقرأ أفكاري قائلًا:

- الحيوانات صديقة للإنسان منذ القدم، الكلاب صاحبة النصيب الأوفر على الدوام، صفة الوفاء لديها لا يمكن تخيلها، تضحي بحياتها من أجل سيدها.

قالها في غموض لينتصب الكلب في وقفته فمسح على رأسه فيما تزال عيناه مثبتة عليٌّ.

ابتسمت في تكلف، هززت رأسي بالموافقة وشعور بالرهبة يغمرني، دخل الخادم حاملًا (صينية) عليها أكواب من الشاي، وضعها أمامنا وانصرف.

تنحنح (سامح) في حرج:

- أعتقد أن الدكتور (محمدي) قد شرح لك ما نحن بصدده، أرسلت الصورة لسيادتك.

- أريد سماع القصة كاملة.. من صاحبها.

أطال النظر إليّ وهو يكمل:

- التفاصيل الصغيرة مهمة، لا تغفلها فلربما تفيدنا إحداها.

شعرت برهبة داخلية من الرجل، ولم أرتح لتلك الضحكة الماكرة التي ترقص على شفتيه، ولا لذلك الهدوء الواثق المخيف، من الواضح أنه ثري ولا يفعل هذا الأمر من أجل المال وإنما لأنه يهوى ذلك..

سردت القصة من بدايتها، أخفيت عمدًا الحديث عن قسم اللعبة وقطعة القلادة المعدنية والتي كنت أحتفظ بها في جيبي طيلة الوقت، لم أدرِ لما فعلت ذلك، لكنني كنت متوجسًا منه وأريد الاحتفاظ ببعض الأسرار لنفسي، كان يحدق في عيني مباشرة وأنا أحاول تجنب ذلك جاهدًا حتى انتهيت، لم يبدو أنه تفاجأ بما سمعه، شبك أصابعه وهو ينظر إلي في برود، لاحظت ارتعاشة يد (سامح) الذي يسمع الأحداث للمرة الأولى وقد انكمش في مقعده صامتًا. في هدوء قال:

- من حكايتك وسردك فهذه المرأة كانت ترتدي تلك القلادة لحمايتها من شيء ما، يمكنك تسميتها بالقلادة الحارسة، الرموز عليها حروف سامرية قديمة، تعود إلى طائفة السامريين أو العبرية القديمة كما يحلو للبعض تسميتها، وهي لغة إشارة وتصوير، كل حرف من حروفها الاثنين والعشرين يشبه عضوًا من أعضاء الإنسان.

كنت أتطلع إليه في شرود وأنا لا أعي حرفًا مما يقول، بطرف عيني استرقت النظر إلى (سامح) الذي طالعني في بلاهة تنم عن جهل مطبق، لاحظ الرجل ذلك فأبطأ وتيرة حديثه وأكمل ببساطة محاولًا تعليمنا:

- انقسمت بنو اسرائيل بعد نبي الله موسي إلى طائفتين، الطائفة الأولى وهي السامرية والطائفة الثانية اليهود، سكنت السامرية نابلس، ويتجهون في صلاتهم إلى جبل جرزيم، وسكنت اليهود أورشليم أو القدس، ويتجهون في صلاتهم إلى جبل صهيون، ظهر الخلاف بين الطائفتين بعد تمسك السامريين بتعاليم التوراة القديمة، التي ترتكز على الوصايا العشر لنبي الله (موسى)، اتهموا اليهود بالتحريف والتغيير، وهذا سبب انفصالهم واقتتالهم بعد ذلك، لا يتزوجون إلا من بعضهم ولا يبشرون، لذلك لا تسمع عنهم لقلة عددهم، غير أنهم حازوا شهرة كبيرة في السحر وصنع التمائم والقلائد التي تحمي حاملها.

ثم سكت قليلًا ليكمل بعدها:

- صنع هذه القلادة أو الحصول عليها ليس سهلًا بالمرة، ويبدو أن الشيء الذي كان يهرب منه حاملها شيء قوي، قوي للغاية..

سألته في استفهام:

- أتقصد أن حاملها يحاول حماية نفسه من شيء مخيف! كالسحر الأسود مثلًا؟؟

هز رأسه نافيًا:

- السحر الأسود أضعف وأقل ضررًا من ذلك، اعتماد صانع القلادة على لغة من اللغات القديمة لصنع تلك التعويذة يعني أنه يطلب حمايته من شيء خطير وقديم، شيء خطير جدًّا.

ضيق عينيه وغمغم بصوت كالفحيح:

- سحر الفراعنة.

سامح وقد بدأ يستعيد اتزانه:

- هل يتعلق الأمر بالآثار ولعنة الفراعنة وتلك الأساطير؟

- ربما يكون كذلك....

قالها في غموض قبل أن يكمل بصوت أقرب إلى الهمس:

- وربما لا.

ثم أردف:

- "الحديث عن الفراعنة وحمايتهم لمقابرهم وكنوزهم ليس بتلك البساطة التي تتكلم بها، قامت عقيدتهم على الإيمان بالعالم الآخر والحياة الأبدية، لذا اهتموا بسلامة الجثمان بعد موتهم، صنعوا التوابيت المتينة وشيدوا المقابر، بغية حمايتها من اللصوص ومنتهكي القبور، قبورهم احتوت على كل ما يحتاجه الميت في العالم الآخر، بالإضافة للذهب والكنوز التي يملكونها وسموا ذلك المكان بحجرة الدفن..

حجرة الدفن وضعت في بئر منحوتة في أول الأمر ثم تطورت لتصبح أكبر وأصلب، زادوا حمايتها لاحقًا بأن صنعوا التوابيت من أحجار وصخور قوية ليصعب حملها أو فتحها، يمكنكم أن تتخيلوا أيها السادة أن هرمًا مثل مزغونة والذي دفن به امنمحات الرابع به بابان أحدهما ٢٤ طنًّا والآخر ٤٢ طنًّا.

كان يتكلم بهدوء وثقة موسوعية وقد جلسنا كأنّ على رؤوسنا الطير فيما أكمل:

- زاد الفراعنة في حماية قبورهم بعد ذلك، نقشوا النقوش التحذيرية على المقابر واستخدموا الممرات السرية والأبواب الوهمية، بالإضافة إلى الكثير من المنزلقات المنحدرة والفخاخ القاتلة، وذلك لبراعتهم في علوم الهندسة، وجعلوا السحر خط الحماية الثاني بعد كل ذلك، السحر كان يعد من العلوم المقدسة في مصر القديمة، وكان الساحر كائنًا خطرًا، دونت الكثير من التعاويذ على الجلود والأقمشة والأخشاب لحماية جسم الحي أو الميت من الأعداء المرئيين وغير المرئيين، منع استخدام السحر الشيطاني والذي يقصد به الإيذاء للآخرين، استخدمه البعض عن طريق صنع الدمي وقراءة التعويذات عليها فيصيب المقصود الأذى كما يفعل بالدمية، المشتغلون بذلك النوع من السحر كانوا يعاقبون عقابًا قاسيًا، وصل العقاب إلى إعدام من يثبت تورطه بذلك كما حدث مع السحرة الذين تآمروا على حياة رمسيس الثالث.

صمت دقيقة وكأنه يترك الفرصة لرؤوسنا لاستيعاب ما يقول وإن لمحت على شفتيه شبح ابتسامة ساخرة وتابع:

- الكهنة كانوا من المحترفين في استخدام السحر، لجأ بعضهم إلى التعويذة الحارسة التي تقيد واحدًا من الجان لحراسة الجسد وحراسة المقتنيات يسمى حارس الرصد.

حارس الرصد يقوم بإيذاء أي شخص يحاول اقتحام المقبرة أو سرقتها إذا كان لا ينتمي إلى الدم الملكي، شاع استخدامها في الكثير من الحضارات القديمة وكانت مشهورة عندهم.

صمت برهة كمن تذكر شيئًا ثم وجه كلامه لي:
- قلت إن تلك المرأة من (اهناسيا)؟؟
- هذا هو المدون في بطاقتها التي استطعنا العثور عليها بمنزلها.
بهدوء قال:
- كانت (اهناسيا) أو (اهناس) وقتها هي عاصمة الحكم للأسرة العاشرة والتاسعة فيما يسمى بعصور الاضمحلال، اشتهر كهنة معبد اهناسيا بقدرتهم على تفسير الأحلام والاتصال الروحي عن طريق الأحلام، يقال إن نبي الله (يوسف) درس بذلك المعبد الرياضيات والفلك وعينه فرعون كاتبًا بالقصر وأمينًا على المخازن بعد نبوءته المشهورة في تفسير الأحلام بعد ذلك، ولذلك ترى الكوابيس والتي هي رسائل بمهمة ما ويجب عليك تنفيذها.
- هل ما يطاردني هو (حارس الرصد)؟
- من الممكن أن يكون حارس الرصد، أو شيئًا آخر أو كليهما..
قالها في غموض فسألته:
- شيء آخر؟!
لم يرد فأردفت:
- أتقصد أن روحًا هي التي تطاردني في أحلامي؟؟ هل هناك شيء كهذا؟
- هل أنت متدين يا (شريف)؟
- شخص عادي، أُصلي صلواتي الخمس وأصوم رمضان وأؤدي ما على من فروض إذا كنت تقصد ذلك.
لم أدرِ ما علاقة ما يقوله بسؤالي وأوشكت على التصريح بما يعتمل في رأسي لكنه بادرني قائلًا:
- الروح من أمر الله، لا نعرف عنها الكثير، لذلك لا نؤكد وجودها على الشكل الذي يتخيله البعض أو ننفيه

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ ﴾

[الإسراء: ٨٥].

انتهى من تلاوة الآيات وأنا أغمغم:

- صدق الله العظيم.....

أصابتني الدهشة المشوبة بالحيرة في أمر هذا الرجل، لا أخفي انبهاري به رغم رهبتي منه ولا شك أننا استفدنا منه كثيرًا..

سألته في حيرة:

- ما الذي تنصحني بفعله يا دكتور؟

سكت قليلاً ثم قال:

- أكمل طريقك ولتتذكر مقولة صديقك (اتبع الطريق من المكان الأول).

تذكرت (حسين) فسألته في وجل:

- أتعتقد أن صديقي أصيب بشيء؟ وهل لتلك الأحداث والأحلام أي دلالة؟

- تلك الأحداث والأحلام تحفزك وتنشط ذاكرتك حتى تنجز أمرًا ما غير معلوم لدي أو لديك حتى الآن، أعتقد أن الشيء الذي أخفى صاحبك هو من كان يطارد المرأة، لديها غرض يخصه ويحاول استعادته، الدلائل تشير إلى أن صديقك ما زال حيًّا ولا أدري إذا أنجزت ذلك الأمر وأكملت المهمة سيعود صديقك أم لا، عليك المحاولة والمضي قدمًا لآخر الطريق.

كانت وجبة دسمة في التاريخ، انتهيت من معرفة كل ما أريده، آن أوان الذهاب فقد أثقلنا على الرجل، استأذنته في الرحيل بعدما شكرناه على وقته ومعلوماته مع وعد باطلاعه على الجديد وأخذ الرأي والمشورة منه..

تظاهر بالنهوض ثم قال:

- لمْ تسأل أهم سؤال.

- ما هو؟

- لمَ اختارتكم اللعبة دون سواكم؟ وما سر تلك الدائرة في القلادة؟

تبادلت النظرات مع (سامح) فيما تابع:

- اختارتكم لسبب فعلةِ واحدٍ منكم، استحق به اللعنة، ولما كنتم أصحاب خطايا فقد شملتكم معه.

- والدائرة؟
- الدائرة تشير إلى عددكم، أنتم الخمسة.
في تعجب سألته:
- كنا أربعة فقط.
أطال النظر إلى (سامح) في غموض وقال:
- هو خامسكم.
ارتعد (سامح) في عصبية وقال:
- لا دخل لي بتلك الترهات.

لم يعقب على مقولة (سامح) وإنما نهض منهيًا المقابلة فشعرت بالحرج، اصطحبنا في رواق طويل يؤدي إلى ردهة كبيرة، على باب البيت وقف مودعًا وقد اختفى كلبه الأسود.

صافحه (سامح) وهو يدلف إلى الخارج ومددت يدي أصافحه، أمسكَ بها وهو ينظر في عيني مباشرة وابتسامة خبيثة تبدو على وجهه وهو يقترب من أذني قائلًا بلهجة ماكرة:

- "لا تضِع ما في جيبك فسوف تحتاج إليه، ولا تنسَ
الصدق مقولتي ......
الطاعة دوائي......
العقاب دائمًا لمن يخالف ....".
اتسعت عيناي في ارتياع فشد على يدي بقوة، وقال بصوت مسموع:
- سعيد لمقابلتكما.

في طريق عودتنا لاحظ (سامح) شرودي فقال:
- ما رأيك فيما قاله دكتور (برهان)؟؟
مططت شفتي وأنا أتمتم:
- الرجل أعلم منا بتلك الأمور، خبير بلا شك.

- الحقيقة أنني كنت خائفًا منه رغم مظهره الهادئ الراقي، لكني أتعجب منك أكثر يا صديقي، كيف استطعت تحمل كل ذلك؟

- كنت أعلم أن من سيشارك في هذا سيصاب بالأذى ولذلك كنت أتجنب ال.....

لم أستطع إكمال كلمتي، صرخ (سامح) في فزع، ضغط المكابح في قوة والإطارات تصدر صريرًا عاليًا، تمايلت السيارة بشدة وشارفت على الانقلاب، لكنه أدار المقود في عنف بالاتجاه المعاكس ليحافظ على توازنها، اصطدم رأسي بالزجاج في قوة فكسرته فيما راح الألم يعتصرني.

أوقف السيارة بجانب الطريق الرملي والدماء تغرق وجهي..

نزل مرتعبًا، هرول ناحيتي، ألقى نظرة على الجرح، ثم أسرع بإحضار شنطة الإسعافات الأولية خاصته، أخرج منها قطنًا وشاشًا وراح يعالج جرحي في مهارة ولسانه لا يكف عن الاعتذار..

بعدما انتهى غسلت وجهي ببعض الماء، ما زال الألم حاضرًا فيما عاد (سامح) إلى مكانه خلف المقود، أراح رأسه إلى الخلف مستندًا على كرسيه وتنهد تنهيدة قوية قائلًا:

- رأيته يا (شريف)، أقسم على ذلك.

تأوهت وأنا أضغط على جبهتي:

- رأيت من؟!

- (حسين) صديقك.

- أين؟!

- في المقعد الخلفي، وجهه أزرق بشع، ويرتدي كفنًا أبيض اللون.

خفق قلبي في قوة، حدث ما توقعته، دخل (سامح) إلى الدائرة، ولا بد من حل قريب.. قريب جدًا...

(١١)

المكان الأول

في اليوم التالي، في الصباح الباكر، تحركنا تجاه محافظة بني سويف للذهاب إلى قرية تلك المرأة، خطتنا اعتمدت على السؤال عنها لنعرف قصتها، أكبر مخاوفنا أن تكون المرأة غادرت القرية بعد ولادتها لتعيش في مكان آخر، البطاقة التي بحوزتنا مضى على إصدارها ما يزيد عن نصف القرن، فترة طويلة حدث بها الكثير من التغيرات بلا شك. كمعظم قرى مصر كانت تلك القرية، مجموعة من العائلات التي تعرف بعضها، يرتبطون بطريقة أو بأخرى بالنسب أو القرابة ولذا من السهل ملاحظة أي غريب، وأولهم نحن..

وصلنا القرية وقد قاربت الشمس على الظهيرة، أشجار النخيل تنتشر على جانبي الطريق في كثافة، والترع والمصارف تحيط بها من كل اتجاه، أشجار القصب تحتل الكثير من الأراضي ليهيمن اللون الأخضر على الصورة ويصبغ المكان كله كلوحة فنية جميلة، على مشارف القرية أوقفْنا واحدًا من الأهالي يركب حماره:

- السلام عليكم.
- عليكم السلام.
- لسنا من هذه القرية، نبحث عن شخص عاش هنا.
- أهلًا بكما، من يكون؟؟
- امرأة تدعى (مجبورة).

بدا عليه الانزعاج، نظر إلينا في ريب فيما اختفت الابتسامة من وجهه قائلًا:

- أي مجبورة تقصد؟؟
- (مجبورة عبد المقصود حسانين)

قلتها فانتفض الرجل كمن لدغه عقرب، تلون وجهه وتركنا مبتعدًا دون أن يقول شيئًا وهو يلكز حماره في بطنه ليسرع وكأن الشياطين تطارده.

تبادلنا النظرات في دهشة ليقول (سامح) وهو يضحك في سخرية:

- ما لهذا الأحمق الفظ.
- ردة فعله عجيبة نوعًا، ربما لا يعرفها.

- يخبرنا ببساطة بدل انصرافه بتلك الطريقة الغبية.

تكرر الأمر مرة ثانية وثالثة، انتابتنا حالة من الحيرة، سمعنا أذان الظهر يدوي فقررنا الدخول للصلاة، نسعى لالتقاط الأنفاس بعد عناء السفر، ومن يدري فلربما وجدنا ضالتنا، وعثرنا بالمسجد على من يدلنا على تلك المرأة.

سألنا على الجامع الكبير واتجهنا إليه، انتهينا من أداء الصلاة، انتحيت جانبًا إلى الركن وأسندت ظهري على الحائط، انصرف المصلون تباعًا، لم يبقَ إلا أنا و(سامح) والإمام الذي صلى بنا، رجل كبير السن سمعت الناس ينادونه بالشيخ (حمدان)، اقتربت منه، سلمت عليه وجلست بين يديه وأنا أقول:

- السلام عليكم يا شيخ (حمدان).

- عليكم السلام يا ولدي.

- أنا (شريف) من الإسكندرية وهذا صديقي (سامح).

قلتها وأنا أشير نحوه ثم أكملت:

- جئنا لموضوع مهم جدًّا، وأريد منك المساعدة، أرجو أن لا تخذلني.

- أهلًا وسهلًا بأهل (الإسكندرية)، أبشر بالخير.

انفرجت أساريري وهممت بالكلام، لكنه قاطعني:

- لن أجيب طلبك حتى تنزل عندي ضيفًا.

كان الأمر مباغتًا فأجبته:

- أشكرك على هذا الكرم، أنت أهل له ولكني فقط أريد........

قاطعني مرة أخرى بحزم:

- لن أغير كلامي .....

قالها وابتسم بود ثم نهض دون أن يترك لي فرصة وقال معقبًا:

- أحضر صديقك، أنتظركما أمام المسجد، أغلق الباب خلفك.

انتهينا من ارتداء أحذيتنا، وقف الرجل قريبا يتحدث مع أحدهم، انتبه لنا فالتفت:

- لا حاجة لإحضار السيارة، البيت قريب ولا تقلقا فهي بمكان آمن.

انطلقنا مع الرجل في طرقات القرية، طفق يوزع السلامات على المارة يمينًا ويسارًا، الرجل محبوب وأهل القرية يبذلون له التوقير والاحترام..

وصلنا إلى أحد البيوت فاستأذن دقيقة ليجلب مفاتيح (المندرة)....

قالها بضم الميم.

المندرة بيت كبير من طابق واحد يجاور بيت الشيخ (حمدان)، له قاعة كبيرة تحوي الكثير من الأرائك الخشبية (الدكك)، والعديد من غرف الجلوس، اعتاد الأهالي الاجتماع بها للاجتماعات المهمة وجلسات السمر والمحاكمات العرفية على مدار اليوم.

شدد علينا أن نرتاح قليلًا، ثم اصطحبنا واحد من الفتية إلى غرفة بممر جانبي بعدما أمره الشيخ (حمدان) بإيصالنا إلى غرفة الضيوف، غرفة مرتبة نظيفة بها سريران متوسطا الحجم، دولاب من ضلفتين بمرآة داخلية، غادر الفتى وعاد بعد دقيقتين بجلبابين على الطراز الصعيدي لنتحرك بهما في راحة، لبستها وتطلعت إلى هيئتي أمام المرآة بالجلباب في إعجاب.

(سامح) في تهكم:

- كبيرة عليك.
- مزاجك رائق للسخرية!
- ستأخذ الأمور مجراها في النهاية، لا تحمل نفسك فوق طاقتها.
- أصبحت حكيمًا الآن!
- بعيدًا عن السخرية، تليق بك كمن يلبسها منذ ولادته.

مكثنا عند الرجل طوال اليوم دون التطرق لسبب زيارتنا، اهتم بنا ولم يقصر في ضيافتنا، انقطاع أنفاسنا من كثرة الأكل والشرب تشهد على ذلك، أردنا الحصول على المعلومة التي جئنا من أجلها، حتى نخطط لخطوتنا التالية، انتحيت به بعد صلاة العشاء قائلًا:

- نشكرك يا شيخ (حمدان) على استضافتنا طوال اليوم، ولكن لا بد من ذهابنا.

- لا تكمل مقولتك، الوقت ليل وأنتما ضيفاي، لن أسامح نفسي إذا تركتكما تذهبان.

- قمت بضيافتنا على أكمل وجه، لدينا ارتباطات ومواعيد.

- لن يحدث شيء لتلك الارتباطات والمواعيد إذا تأجلت يومًا آخر، ثم إنكما لم تنتهيا من الأمر الذي جاء بكما.

- لهذا أردت أن أسألك عن......

أشار إليّ بيده أن أتوقف وتابع:

- أخبرتك يا ولدي أنني سألبي طلبك بعد ضيافتكما، عادتنا أن تمكثا عندنا ثلاث ليال، لكن حتى لا تتعطل مصالحكما فسأسمع ما تريدان بعد صلاة الفجر.

كان واضحًا أننا لا نملك الخيار مع إصرار الرجل، موعدنا الفجر... والفجر قريب....

الكوابيس تتكرر معي في الفترة الأخيرة، الأمر نفسه في كل مرة، لكن هذه المرة كان مختلفًا، أرى فيما يرى النائم أنني أقف على جبل ضخم، أمامي مغارة صخرية، وصوت يتردد في عقلي يأمرني أن أبتعد عنها ويحذرني من الاقتراب، أتردد في الابتعاد ثم يغلبني فضولي، اتحرك تجاهها، أسمع صوت (حسين) ينادي من الداخل ويطلب مني إنقاذه، أهرول تجاه المدخل وأقف على الحافة، أرفع قدمي لأدلف ومع خطوتي الأولى تخرج ريحٌ قوية، تقذف بي على الأرض كَرِيشة صغيرة، أحاول النهوض فلا أستطيع، أرفع رأسي فأجد شخصًا غريبًا يسد الطريق، ضخم الجثة حليق الرأس يرتدي ثيابًا بيضاء تشبه تلك الملابس التي يرتديها الكهنة في المسلسلات والأفلام، لكنه يملك وجهًا أزرقَ وقد جحظت عيناه وبدت بيضاء تمامًا، الغضب الشديد يكسو ملامحه، يشير بيده إلى نقطة ما خلف ظهري، أدير رأسي لأتبينها فيؤذن الفجر..

صوت الأذان كان عاليًا، مكبر الصوت مثبت بمكان قريب من نافذتي، ممتن لذلك جدًّا لأنه انتزعني من ذلك الكابوس، أيقظت (سامح) بصعوبة وتوضأنا ثم اتجهنا إلى الجامع الكبير فصلينا خلف الشيخ (حمدان)...

انتظرنا جانبًا، نهض وأشار إلينا أن نتبعه، وصلنا إلى (المندرة) وجلسنا أمامها نتبادل أطراف الحديث.

بعد دقائق أتى شاب يحمل (صينية) وضع عليها إفطارنا، جبن أبيض، وفول مدمس، وبيض بالسمن، ومِش وعسل أسمر والعيش الشمسي، بالإضافة إلى ذلك الكوب الكبير من الشاي بالحليب.

انتهينا من الإفطار، الحقول تكتسي بالخضرة، نسائم الصباح تلوح في الآفاق، العصافير تزقزق، انتشلنا الشيخ (حمدان) من نشوتنا مبادرًا:

- أعرف ما الذي جئتما من أجله أيها الشابان.

وأكمل:

- جئتما من أجل (مجبورة)، أليس كذلك؟

هززت رأسي بأن نعم ونظرات الدهشة تعتلي وجه (سامح) ثم تابع:

- رجلان غريبان يسألان الناس عن (مجبورة)، أتعتقدان أن أمرًا كهذا لن يصلني في وقتها!

- لماذا لم تخبرنا حين التقيناك أول مرة؟

- أولًا، كان لا بد من ضيافتكما كما تقتضي عاداتنا، وثانيًا أردت أن أتبين صدق نواياكما، فربما قدمتما لأمر يتعلق بالآثار والمقابر.

- وما أدراك أننا لم نأتِ لذلك؟؟

قالها (سامح) وهو يبتسم في ودّ فأجابه:

- أعرف معادن الرجال حين أراهم، فما بالكما وقد قضيتما ليلة في بيتي؟

ثم تابع:

- سأحكي لكما كل ما يتعلق بتلك المرأة ولكن بعد أن أعرف القصة منكما، القصة كاملة حتى أستطيع مساعدتكما.

قصصت عليه ما حدث وانتهيت من السرد ليأتي دوره.....

*****

(١٢)

طريق النهاية

(حكاية مجبورة)، يحكيها الشيخ (حمدان)..

- فتاة بسيطة كغالب فتيات القرية، أبوها رجل فقير يعمل بالأجرة في الحقول، لم يكن بها شيء يختلف عن مثيلاتها ولم تتميز حتى تزوجت (عبد الهادي)، شاب طموح يعمل في الأقصر بواحد من تلك المحلات التي تبيع الآثار المقلدة والتحف، بطريقة أو بأخرى تعرف على بعض العاملين في التنقيب عن الكنوز، صار يرافقهم في رحلاتهم وما أكثرها في مصر خاصة في الوجه القبلي، أحواله المادية استمرت في التحسن، رغم أن الأمور وقتها لم تكن كما هي اليوم فيما يتعلق ببيع الآثار لكنه كان ربحًا جيدًا بما يكفي ليدفع (عبد الهادي) إلى اتخاذ هذه المهنة السرية كحرفة أساسية له، تعاظمت تجاربه، بمرور الوقت صار يعمل لمصلحته الخاصة، تعلم السحر ليستطيع فتح المقابر بلا تحكم من أحد، تردد على السحرة داخل البلاد وخارجها وأصبح يؤدي الطقوس بنفسه، وكون حوله عصابة من الأتباع والمنتفعين، شرع في تعليم زوجته لمساعدته إذا احتاج إليها وأضحت من النابغين في ذلك العلم.

في مرة من المرات كان ينقب في مقبرة بقرية في (سوهاج)، الوقت كان ليلًا واضطر إلى الحفر عميقًا وبصحبته الكثير من العمال، لم يثبتوا التربة جيدًا فانهارت المقبرة عليهم ليموتوا بداخلها ولتكمل زوجته الطريق بعده.

سنوات معدودة خلت، ذاع بعدها صيت المرأة، وأصبحت مطلبًا للباحثين عن الآثار في كل مكان، الكثير من القنوات والمحطات العالمية قابلتها وأجرت معها أحاديث صحفية، تحت مسمى أنها خبيرة بالآثار الفرعونية.

لم يكن لها اختلاط بأهل القرية وكان الجميع يهابها، ظل الأمر كذلك حتى وقعت مشكلة (شحاتة)...

كان لا يزال يتكلم ونحن نصغي له في اهتمام وهو يكمل:

- (شحاتة) أحد أغنياء القرية، يملك نفوذًا ومالًا ويضع يده على الكثير من الأراضي، قبل موت (عبد الهادي) بوقت قصير ابتاع من (شحاتة) أرضًا وبنى عليها بيتًا ليقيم فيه مع زوجته (مجبورة)، بعد موته طالب (شحاتة) (مجبورة)

بباقي حساب الأرض، لكن الأخيرة جحدت ذلك وقالت إن زوجها قد دفع المبلغ كاملًا قبل موته، ظلت المشاكل معلقة بينهما لفترة طويلة بلا حل، تفاقمت حين كبر أولاد (شحاتة) وحرضوا أباهم على أخذ حقه بالقوة، اغتر بعزوته وأمواله واستضعف (مجبورة) ولم يأبه لسمعتها.

أعد العدة للهجوم وجهز لذلك جيشًا من المرتزقة وقطاع الطرق. في ليلة من ليالي الشتاء الباردة هجم بأولاده ورجاله ليلًا وهم يحملون السلاح، حاصروا بيتها واقتحموه لاحقًا، دمروا أثاثها، وأجبروها على مغادرة الأرض.

انتقلت مجددًا إلى بيت أبيها وهي تهدد وتتوعد، ولم يمضِ وقت طويل قبل أن تستحيل حياة (شحاتة) إلى جحيم، ابنه الأكبر وُجد ميتًا في غرفته بعدما أطلق النار على نفسه، ابنته الحامل نزفت بشدة وقد سقط وليدها بعد أن رأت في نومها امرأة مخيفة تلبس الأسود تضربها في بطنها بقوة. زوجته تشوه وجهها وتم إسعافها بصعوبة بعد أن شبت النار بالدار بلا مقدمات وكادت تقتل الجميع.

تلك الحوادث المتتالية أجبرت (شحاتة) على الذهاب إلى (مجبورة) ليعتذر لها ويطلب السماح منها، توسل لها أن تتركه وعائلته لشأنهم، غير أنها أرادت الانتقام وأصدرت حكمها بخروجه من القرية فورًا إن أراد الإبقاء على حياته وحياة أولاده، جمع ما استطاع جمعه ورحل سريعًا بلا عودة.

ارتفع شأن (مجبورة) بين الأهالي أكثر، ونسجت حولها الحكايات والقصص، حتى صارت النساء بالقرية يعاقبن أولادهن بها، فتقول الأم لابنها:

- لو لم تطع أباك فستأتي لك (مجبورة).

وتقول أخرى:

- إن ضربت أخاك الصغير فستزورك (مجبورة) في أحلامك لتضربك كما تضرب أخاك وإن كذبت فستأكل لسانك وتصبح أبكمَ.

انتشرت الأساطير عنها وعن بيتها والخيال الخصب لأهل الريف أدلى بدلوه، لم يجرؤ أحد على المرور جوار بيتها خاصة في الليل، عزز ذلك ذكر بعض الأهالي

ممن اضطروا للعبور من هناك انتشار القطط والثعابين حول المنزل، وسماعهم أصوات تشيب الرأس كما قالوا.

اختفت (مجبورة) بعد تلك الحادثة ولم يرها أحد لفترة طويلة، خادمها (فرج) الوحيد الذي لازمها وكان مصاحبًا يلبي لها الاحتياجات والضروريات.

توقف لالتقاط أنفاسه فبادرته:

- إذا كانت تلك المرأة بتلك القوة فمما كانت تهرب؟

طالعني بنظرة معاتبة وهو يقول:

- لا تكن عجولًا فما زال للقصة بقية.

خدجني (سامح) بنظرة جانبية ولسان حاله يقول:

- اصمت أيها الأحمق ودع الرجل يكمل.

التزمت الصمت فأخذ نفسًا عميقًا وتابع:

- كنا نسمع من الحكايات القديمة أن هناك مقبرة أثرية في الجبل، رأى مدخلها غير واحد من أهل القرية في مناسبات عدة لكنها سرعان ما كانت تختفي بلا علامة، اشتهرت هذه القصة بين آبائنا وأجدادنا وتم ترديدها جيلًا بعد جيل، في يوم من الأيام فوجئنا برجل بثياب غريبة يجوب القرية، شوهد عدة مرات بالقرب من بيت (مجبورة)، علمنا فيما بعد أنه ساحر من المغرب، تحدث البعض في مجالسهم الليلية على أنه جاء من أجل تلك المقبرة المزعومة لكن لم يجسر أحد على ربطه بمجبورة لاعتقادهم أنها تسمعهم وتعرف ما يقولون، كانوا يتكلمون عنها دون أن يذكروا اسمها حتى لا تأتي وتسبب لهم الأذى.

بلا مقدمات اختفى المغربي، تناسى الناس حكايته، حتى وجدنا جثة ملقاة بالترعة، جثة الساحر المغربي ويبدو أنها ظلت بالماء فترة طويلة حتى أزرق وجهها، منذ ذلك الوقت تحولت حياتنا إلى جحيم، كثرت المشاحنات وانتشرت الحرائق بلا أسباب، لم يسلم منها أحد حتى إنها طالت بيت (مجبورة) وأحرقته تمامًا.

هربت في أعقاب الحريق ومن يومها اختفت تمامًا مع تابعها (فرج).

- هل تعني أن جميع المشاركين بهذه القصة قد ماتوا؟

قالها (سامح) في يأس....

- (مجبورة) قد ماتت كما أخبرتموني، كذلك الرجل المغربي، ولم يبقَ إلا (فرج).

- لكننا لا نعرف مكانه، ولا نعرف إذا كان لا يزال حيًّا أم لا.

- إنه حي.

- كيف تعرف؟

- الكلام يتناثر هنا وهناك، الأهالي لا يكفون عن الثرثرة، بقليل من البحث سنستطيع العثور عليه.

- إنه فرصتنا الأخيرة؟

- لا تحملوا همًّا، اليوم يأتي خبره.

كانت الشمس قد أخذت مستقرها فتفرقنا مع وعد باللقاء، بعد صلاة (العصر) كنا نجلس مع الشيخ (حمدان)، انتهينا من تناول الغداء، قال والبشر على وجهه:

- توصلنا إلى مكان (فرج).

تطلعنا إليه في اهتمام ليكمل:

- يختبئ كالفأر في غرفة صغيرة بجانب الترعة على أطراف القرية، يتواجد فيها ليلًا للنوم ويهرب منها باكرًا.

- دلنا عليها، سنذهب إليه.

- إذا شعر بوجودنا أو تنامي إليه الخبر سيختفي، لن يمكننا العثور عليه مرة ثانية.

- والعمل؟

- نراقب المكان، ما إن يدخل بقدمه إلى المصيدة حتى نقبض عليه.

الساعة تقترب من العاشرة ليلًا، يقف الشيخ (حمدان) معطيًا التعليمات لما يقارب العشرة من الرجال الأشداء، تسلح كل واحد منهم بعصا غليظة (شومة) قائلًا في صرامة:

- حاصروا مكانه واقبضوا عليه بلا أذية أو ضرب، احذروا أن يهرب منكم، إن فعل فلن نستطيع إيجاده ثانية، وستظل تلك اللعنة تلاحق أبناءنا وأحفادنا.

أومأ الرجال برؤوسهم في تفهم وانطلقوا والعزم بادٍ على وجوههم، مضت ساعتان، قبل أن يدخلوا ومعهم (فرج) وقد قيدوا يديه ورجليه، فيما تمزق جلبابه وآثار كدمات واضحة على وجهه، الإصابات تدل على أنه قاومهم أو أن الرجال لم يسمعوا حرفيًّا لما قاله الشيخ (حمدان)، لكن على كل حال ها هو ذا حي يرزق بين أيدينا.

كان (فرج) طويلًا نحيفًا، ببشرة قمحية تميل إلى السمرة، بعيون ماكرة كعيون الثعلب، له أنف ضخم معقوف، ورأس أصلع، لا أدري هل تكسر أنفه من الكدمات أم أن هذه هي خلقته..

أدخله الشيخ (حمدان) إلى إحدى الغرف، أمسك بتلابيبه رجلان ضخما الجثة، أجلساه في الأرض بعنف، دخلنا معهم وأغلق الباب.

- أنا طوع أمرك يا شيخ (حمدان)، لكن لا تقتلني فليس لي ذنب في كل ما حدث.... قالها بصوت أقرب إلى البكاء.

- أنت سيد قرارك هنا، لو قلت الصدق وساعدتنا فقد تنجو من هذا الأمر.

- أقسم لك لن أقول إلا الصدق، أعيش في رعب وخوف، لم أفعل شيئًا لكل ذلك.

- لا تتظاهر بالبراءة أيها الثعبان.

- كنت خادمها، أفعل ما تأمرني به، أقسم أنني لم أشارك في أي من أعمالها.

كان الشيخ (حمدان) يدور في الغرفة، عقد يديه خلف ظهره متقمصًا شخصية المحقق، ثم اقترب من وجهه فجأة وهو يقول في صوت أقرب إلى الهمس: سنرى ذلك.

وسكت قليلًا ثم اعتدل وهو يكمل:

- إن كنت صادقًا، سأخبر الأهالي الغاضبين بذلك.

ثم فرك يديه ببعضهما:

- ربما يصفحون عنك، ويتركونك تعيش بيننا.

- أنا طوع أمرك، ما الذي تريد معرفته؟

- أريد معرفة كل شيء، ولنبدأ بقصة القلادة، القلادة الزرقاء.

اتسعت عينا (فرج) في رعب:

- قلادة السيدة؟!، كيف أستطعتم الوصول إليها؟

- هذا ليس من شأنك، لا تقم بطرح الأسئلة هنا، احكِ ما حدث فقط بلا زيادة أو نقصان.

أخذ نفسًا عميقًا، وشرع في سرد ما يعرفه قائلًا:

- كانت السيدة ملمة بأسرار المقابر والكنوز، بلغت درجة عالية من المعرفة والمهارة في ذلك المجال، يعرف الناس في القرية منذ القدم وتعرف هي أيضًا بوجود مقبرة بالجبل القريب، تيقنت من ذلك منذ زمن، لكن خدّامها من الجن حذروها من الاقتراب منها، لقوة الرصد وقوة صاحبها، الذي يقال إنه كان كاهنًا فرعونيًّا كبيرًا، ظل الأمر على حاله حتى ظهر الشيخ (سلامة)، هكذا كنا نطلق عليه، ليس شيخًا بالمعنى المتعارف عليه، وإنما كان ساحرًا قوي الحجة، أوهمها أنها ستحصل على القوة من هذه المقبرة، وقام بإحضار بعض الأغراض التي ستحميهم من حارسها ومن صاحبها كما قال، لم ترد السيدة المخاطرة، ولم تكن ترى فائدة لذلك، لكنه لعب بعقلها واستغل طمعها، زين لها بأنها ستصبح أعظم السحرة على الإطلاق بعدما تحصل على عصا الكاهن، وسيفتح لها ذلك أبواب القدرة والسيطرة.

سأله الشيخ (حمدان) في استفهام:

- لماذا لم يذهب هذا الساحر لفتح المقبرة بنفسه؟ ولماذا يفعل ذلك إن كانت (مجبورة) هي التي ستحصل على العصا؟؟

- احتاج إلى السيدة لعدة أسباب، أولًا: لقوتها وخبرتها في مجال المقابر الفرعونية، وثانيًا: حتى لا تنازعه لوجود المقبرة قريبًا من مجال نفوذها، ثم إن دماءه لم تكن مصرية، ولم يكن يستطيع فتح المقبرة على أي حال.

- ماذا حدث بعدها؟

- تم الاتفاق بينهما بأنه سيحصل على الكنوز الموجودة، وستحصل هي على العصا.

- هل تلك العصا مهمة بذلك القدر؟

- نعم يا سيدي، مهمة جدًّا لمن يقدر قدرها، وخطرة جدًّا في الوقت نفسه.

- أكمل.

- بعد إلحاح صدقتْ كلامه، خاصة بعدما جلب لها الحماية.

- الحماية؟! أتقصد خدامًا من الجن؟؟

- لا يا سيدي، لم تكن تحتاج إليهم وعندها ما يكفيها، لكنه أحضر لها تلك القلادة الزرقاء، وذلك الصندوق، لحمايتها من التتبع، وحتى لا ينتقم منها حارس الرصد، أو صاحب المقبرة بعد السرقة.

- أتقصد الكاهن؟

- بالضبط، مقبرة الكهنة من أخطر المقابر التي نتعامل معها.

ثم أردف:

- اتفقا على الأمر ورتبا له، استطاعا الوصول إلى المقبرة والحصول على العصا، اختلفا بعد ذلك، علمت السيدة من خدامها من الجان أن (سلامة) يخطط لقتلها، طمعًا في الحصول على العصا، قررت أن تسبقه، دبرت له مكيدة محكمة وقتلته، ألقت به في الترعة حتى عثر الناس عليه بعدها.

- أين ذهبت تلك العصا؟؟

- لا أعلم، اختفت منذ اليوم الأول، لا بد أن السيدة احتفظت بها في ذلك الصندوق.

- هل أخذت الصندوق معها وقت هروبها؟؟

- كان الحريق قويًّا وحدث فجأة، انشغلنا بالخروج سريعًا لننجو بحياتنا، وأعتقد أنها لم تستطع أخذ شيء.

- إذا كانت العصا موجودة بالمنزل، كيف لم ينتبه أحد إلى وجودها!! أو إلى وجود الصندوق؟؟

- لا يجرؤ أحدٌ على دخول بيت السيدة حتى لو لم تكن فيه، تعرف سمعتها ورهبة الناس منها، ثم إنها لم تكن تحتفظ بأشيائها في البيت.

- أين؟؟

- أسفل منه.

- كيف ذلك؟؟

- صنعت سراديب تحت الأرض، حتى تستطيع عمل طقوسها وحماية عملها ومقتنياتها، لا شك أن الصندوق هناك.

- هل تستطيع إدخالنا لذلك المكان؟

صمت برهة فحدجه الشيخ بنظرة نارية فقال:

- بالطبع أستطيع، لكن هناك مشكلة.

- ما هي؟!

- حتى لو وجدنا الصندوق، لن نستطيع فتحه أبدًا.

زفر الشيخ (حمدان) في ضيق:

- لا تلعب معنا لعبة القط والفأر، هات ما عندك كاملًا.

- أنا لا ألعب معكم، للصندوق مفتاح خاص به.

- كيف نجده؟

- إذا استطعت الوصول إلى القلادة فيمكنك إيجاد المفتاح، مخبأ بداخلها عن طريق.....

قاطعته:

- أتقصد تلك القطعة المعدنية الصغيرة التي تحمل نقش القلادة!!.

نظر إلي في دهشة وهو يقول: كيف تعرف ذلك؟

وضعت يدي في جيبي لأخرجها وأرفعها أمام عينيه لتتسع عيناه في انبهار:
- كيف استطعت الحصول عليها؟! هل قابلت السيدة؟ هل هي هنا؟
ثم بدا عليه الخوف ليصيح:
- ستنتقم مني إذا علمت أنني أخبرتكم بكل ذلك، لا بد أنها ستعلم.
ربت الشيخ (حمدان) على كتفه يحاول تهدئته:
- لا تقلق يا (فرج)، مجبورة ماتت.
- كيف ماتت؟! هل توصل إليها (سلامة)؟؟
قالها في هلع وامتقع وجهه، فشعرت بالإشفاق عليه وأنا أتخيل الرعب الذي يعيشه كل يوم، لكن الشيخ (حمدان) هدأ من روعه ثم اعتدل واقفًا وهو يقول في حزم:
- سندخل الليلة إلى وكر تلك الأفعي ....

انطلقت ثلاث عربات تنهب الطريق نهبًا، تقلنا تجاه بيت (مجبورة)، لاحظت أن الرجال قد زوّدوا تسلحيهم وأحضر كل واحدٍ منهم بندقية نارية وضعها على كتفه، السمعة المخيفة لمجبورة وبيتها أثرت عليهم فجعلتهم أكثر توترًا وحذرًا، اقتربنا من البيت الذي كان منعزلًا كئيبًا، اختفت الحقول الخضراء من حولنا، على بعد خطوات منه توقفت السيارات، نزل الرجال وهم يحملون مشاعل نارية، فيما أمسك بعضهم بالمصابيح اليدوية.
كنا نمشي خلف (فرج) كونه يعرف الطريق، فيما أمسك بيده عصًا خشبية رفيعة وهو يردد:
- السلام والأمان يا أهل الدار.
كان البيت قد تحول لما يشبه الخرابة، الردم وعلامات الهدم منتشرة حوله، آثار الحريق لا تزال واضحة وقد اكتست الأطلال بالسواد، ودخان غريب كالضباب ينتشر حولنا، دلفنا إلى الداخل، انطلق (فرج) إلى أحد السلالم الداخلية ثم التف حوله لنكتشف سلمًا يؤدي إلى الأسفل، نزلنا خلفه بحذر.

﴿ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ ٱلشَّيَاطِينِ ۝٩٧ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ۝٩٨ ﴾

أخذ الشيخ (حمدان) يرددها، و(فرج) يقودنا في متاهة من الدهاليز السفلية وقد انتشرت الغرف على كلا الجانبين، على أضواء المصابيح والمشاعل استطعنا تبين طريقنا، انتشرت العديد من الأقفاص التي تحوي هياكل عظمية لبعض الحيوانات، وخزانات تحوي العديد من الكتب، وأخرى تحوي موادًّا مختلفة الأشكال، وضعت في أوانٍ زجاجية شبيهة بتلك التي توضع بها التوابل والبهارات..

انطلقنا في ذلك السرداب حتى بلغنا آخره، وقف (فرج) أمام الحائط ثم دفعه، ظهر خلفه بابٌ سريٌّ يقودنا إلى غرفة أخرى، دخلنا الغرفة فيما بقي البعض بالخارج لتأمين ظهورنا، على ضوء المشاعل النارية، ظهرت معالم الغرفة بشكل أكثر وضوحًا، جلود لحيوانات علقت على الحائط تحمل نقوشًا وطلاسم، على الأرض نقشت نجمة داود السداسية بحجم كبير، وضع على كل طرفٍ منها شمعة حمراء اللون، فيما توسطها صندوق أسود غريب الشكل.

- أخرج المفتاح، ضعه في ذلك التجويف أعلى الصندوق ...

قالها (فرج) موجهًا كلامه لي.

دنوت من الصندوق، لمحت ذلك النقش المميز الذي أعرفه وصرت أحفظه عن ظهر قلب، (نقش اللعبة والقلادة)، أخرجت المفتاح من جيبي، وضعته حيث أشار، صدرت أصوات من الجهات الأربعة للصندوق، وبرز طرف معدني سحبته فانفتح، الصندوق مصنوع من خشب الأبنوس، يحوي طبقة من القطيفة من الواضح أنها أضيفت له حديثًا، كانت العصا تقبع في القاع فالتقطها وأنا أتفحصها في فضول، للوهلة الأولى لم أشعر أن بها شيئًا مميزًا، لا تختلف كثيرًا عن العصي التي تباع في خان الخليلي من وجهة نظري، لكنها بدت ثقيلة نوعًا ما، وتحمل في رأسها قطعة معدنية على شكل ثعبان الكوبرا. كانت عينا (فرج) تلمعان وهو ينظر إلى العصا، لكزه الشيخ (حمدان) وكأنه قرأ ما يدور برأسه قائلًا:

- هذه العصا ليست لنا، لا بد أن نعيدها لأصحابها، هي لعنة على كل من يأخذها بغير حق، ولن تنتهي إلا بعودتها.

غادرنا المكان بسرعة، ليأمر الشيخ (حمدان) الرجال بإضرام النيران في الطابق السفلي، ثم انطلقنا بعدها وقد لاحظت عيون القط الأسود وهي تراقبنا من وراء جدار اختفى خلفه..

- كيف سنصل إلى المقبرة يا (فرج)؟؟

- الليلة بلا قمر، هذه الأيام المناسبة التي تظهر بها، أعرف مكانها تقريبيًا، لكن أعتقد أن العصا ستدلنا عليها عند اقترابنا منها.

اتجهنا خارج البلدة، سلكنا عدة دروب صحراوية، قدنا صعودًا بالسيارة لجبل متوسط الحجم حتى وصلنا إلى المكان الذي يتذكره (فرج) ليقول:

- هذا هو المكان الأقرب الذي أتذكره، لا أعرف شيئًا بعده.

توقفت وأنا ألتفت يمينًا ويسارًا في دهشة، أعرف هذا المكان وأذكره جيدًا، نفس المكان الذي رأيته بالحلم الأخير، أخذت مشعلًا من أحد الرجال، مشيت أمامهم أقودهم كأني أحفظ الطريق عن ظهر قلب، وصلت إلى تلك التبة الصخرية فيما أصيب الرجال بالدهشة وهم يتبعونني في صمت، انتهيت إلى المكان الذي رأيت فيه المغارة بالحلم، لم أجد شيئًا سوى صخور الجبل الصماء، أمسكت بالعصا، ضربت بها الصخور في قوة ليهتز الجبل في عنف وينفتح باب المغارة، تمامًا كما رأيته سابقًا، وليرتفع أصوات الرجال بالهمهمة، أشار الشيخ (حمدان) بيده ليعم الصمت المكان. تقدمت إلى الداخل بخطوات ثقيلة، تعلق (فرج) بطرف جلبابي وهو يتبعني، عندما حاول الشيخ (حمدان) الدخول خلفنا انغلق الباب بقوة.

صرنا داخل تجويف كالمغارة، اختفى الباب تمامًا، على الجانب الآخر من الجدار فتحة صغيرة تكفي لعبور شخص واحد زاحف على يديه، اقتربت منها وبدأت بالزحف وأنا أمسك المشعل في يد والعصا في اليد الأخرى، فيما تبعني (فرج) وهو يلهث من الخوف.

زحفنا لمسافة لا تقل عن ثلاثين مترًا، وصلنا إلى غرفة أخرى تشبه الغرفة الأولى وعلى جدرانها العديد من النقوش الفرعونية الملونة.

- اختفى الباب... قالها (فرج) وهو يشير إلى المكان الذي دخلنا منه والذي أصبح مغلقًا تمامًا، وقد اختفت الفتحة وتحولت إلى حجارة وكأنها لم تكن.

اصيب (فرج) بنوبة من الذعر وهو يصرخ في هستيريا:

- لا أستطيع التنفس .... إني أموت

قالها وهو يضع يده على رقبته كمن يختنق، حاولت تهدئته بلا جدوي، لا أدري ما الذي عليّ فعله، وقفت في منتصف الغرفة وتطلعت إلى السقف المرتفع جدًّا وإلى الجدران القوية، بدأت العصا في الاهتزاز في يدي وحرارة غريبة تسري منها وقد تحول لونها إلى اللون الأزرق، أمسكت بها بقوة وقد زاد الاهتزاز، بدا كأن شيئًا يجذبها، ثم انفتحت كوة صغيرة في أحد الجدران تظهر غرفة جانبية.

ازددت تعلقًا بالعصا لعلمي أنها ربما تكون وسيلة خروجنا وتطلعت إلى الكوة وأنا أوقن أنني لن أستطيع الدلوف منها لصغر حجمها، على ضوء المشعل رأيت تابوتًا هناك داخلها، فكرة ما قفزت إلى رأسي وأنا أتذكر مقولة الدكتور (برهان) فرفعت العصا عاليًا وأنا أقول بصوت جهوري:

- الصدق مقولتي،

الطاعة دوائي،

والعقاب دائمًا لمن يخالف..

بدأت الفتحة الصغيرة تغلق في بطء حتى أصبحت كثقب صغير ليخرج منها نور قوي ويضرب يدي التي تحمل العصا، صرخت من شدة الألم وأنا أفلت العصا لتسقط مني وتعلق في الهواء قبل أن تصل إلى الأرض.

تابعت النظر إلى العصا المعلقة في الهواء أمامي، لتأتي ريح قوية فتطفئ المشعل، وتتحول الغرفة إلى الظلام الدامس، وشعور بالاختناق يتسرب لي ويطبق على صدري، وأنا أتطلع إلى (فرج)، الذي سقط على ركبتيه وما زال يمسك رقبته وهو يلهث في ألم، تعالى صوت فحيح غاضب خمنت أنه لثعبان، من فحيحه أدركت أنه كبير الحجم، جلست على الأرض بلا حراك جوار (فرج) وقد أحسست بدنو أجلي.

لم يمضِ وقت طويل حتى اختفى الفحيح بلا مقدمات، سمعت صوتًا قويًّا من الحائط الذي خرج منه النور قبلًا ليتهدم أمامي بعنف، انقشع ضباب التراب لندلف إلى قاعة كبيرة يتوسطها تابوت، اقتربت منه وخلفي (فرج) يجرجر قدميه، بجوار التابوت وعلى نفس مستواه تبة صخرية بها قليل من سائل رقراق يشبه الماء، محفور فيها خط أدركت ماهيته، عدت للغرفة الجانبية وبحثت أسفل الهدم حتى وجدت العصا، التقطتها وشرعت في وضعها قبل أن ينبهني (فرج):

- احذر أن تلمس يداك هذا السائل.

ما إن وضعت العصا في مكانها، حتى دوي شعاع أزرق كالبرق ضرب المكان وكدنا نصاب بالعمى، ثم انفتح باب جانبي، هرعنا للخروج منه لنجد أنفسنا أمام المغارة وسط ذهول الشيخ (حمدان) والرجال...

في تلك اللحظة هبت عاصفة ترابية، أرغمت الجميع على تغطية وجوههم وأعينهم وأطفأت المشاعل لتختفي تلك التبة الصخرية المميزة للمغارة إلى الأبد..

حدثت بعض الحوادث البسيطة في القرية عقب مغادرتنا، لن أشغل بالك بتلك الأمور فربما يأتي ذكرها بالتفصيل في وقت لاحق، لكنك الآن على الأقل بت تعلم النهاية السعيدة وتدرك أننا عدنا سالمين إلى الإسكندرية..

لم أستطع فهم ما حدث بالمغارة، ولا كيف خرجنا، لكني ربما سأحتاج إلى زيارة الدكتور (برهان) في يوم ما للوقوف على بعض الأحداث ومحاولة فهمها..

ها قد مضت الأيام، عاد (حسين) إلى بيته سليمًا معافى.

لا يدري كيف جاء ولا أين ذهب ولا يتذكر شيئًا من ذلك، ألمح في عينه خوف غريب لم أعهده فيه، لا يهم ما دام عاد والحمد لله وهذا ما يعنيني....

أمه ما زالت قلقة عليه، لم تفهم ما الذي حدث وتشكو من بعض سلوكياته الغريبة، ربما تتوهم قليلًا، يحتاج إلى بعض الوقت ليغدو طبيعيًّا، ما حدث معه ليس بالأمر الهين، ثم إنني سأظل معه حتى يعود لسابق عهده ويصبح أفضل

مما كان، أشعر بالسعادة رغم تلك الأحداث، عدت إلى حياتي العادية، لا لعبة مجهولة تأمرنا بزيارة القبور ليلًا، ولا كوابيس، ولا امرأة تلبس كفنًا أسود، ولا قلادة زرقاء، ولا عصا كاهن، ولا تعاويذ ولا طلاسم، انتهى كل ذلك إلى غير رجعة، اختفت الكوابيس وأصبحت أنام مرتاح البال وأنا أحمد الله على السلامة وأكتب إليكم لأطمئنكم أنني بخير....

دسست جسدي تحت الغطاء، التمس بعض الدفء، على وشك النوم حينما رن الهاتف، فكرت أن لا أجيب، وتملكني بعض الضيق كوني نسيت إغلاقه، لا أريد منغصات لتلك النومة التي أنوي جعلها هنيئة لأكافئ نفسي بعد تلك الأحداث.

كان المتصل (فؤاد)، ما زلت تذكر هذا الأرعن بالطبع، الذي كان سببًا مباشرًا لكل ما حدث، ومع تسليمي بالأقدار وبأن كل شيء له سبب لكني لم أستطع نفي جزء كبير من التهمة عنه.

نسيت أن أخبرك أنه كرر الاتصال بي عدة مرات في الأيام السابقة، لكنني لم أكن في حالة تسمح لي بالرد عليه ومناقشة ما يحدث، سأعلمه بكل ما حدث بعد انتهاء هذا الكابوس، لكنني سأفي بعهدي بعدما أستيقظ.

النوم سلطان، أتاني بعد شوق، كما أن ملمس ذلك الغطاء القطني الناعم يدغدغ جسدي وينشر الكسل على كل جوارحي، لذا انتظرت حتى انتهى الرنين وأغلقت الهاتف..

لم أدرِ كم مر من الوقت قبل أن أشعر بيد حانية تهزني في رفق.

بصوت ناعس يشوبه القلق:

- استيقظ يا (شريف)، صديقك هنا، يريد مقابلتك.

فتحت عيني بصعوبة، تطلعت إلى أمي وآثار النوم لا تزال بادية على وجهها وقد تدثرت بشال صوفي ثقيل أسود اللون وسألتها:

- صديقي؟!

- نعم، صديقك (فؤاد) ينتظرك بغرفة الضيوف.

- كم الساعة؟

- الرابعة فجرًا.

- الرابعة فجرًا!! ما الذي أتى به في هذا الوقت؟

قلتها وأنا أنهض بصعوبة وأفرك عيني في إرهاق

- لا أعرف يا ولدي، يبدو أنه أمر مهم، من الواضح أنه يحتاجك حقًّا.

لم أدرِ ما الذي تعنيه لكنني غمغمت:

- سنرى يا أمي.

- أتى لزيارتك أكثر من مرة في الأيام الماضية، كنت تتهرب منه لكن الوقت فجرًا ولا عذر لديك.

هززت رأسي في استسلام وأنا أغادر سريري وأجر قدمي في صعوبة ومن دون أن أغسل وجهي اتجهت إليه...

وما إن دلفت إلى الغرفة حتى هالني ما رأيت.

(فؤاد) ذلك القوي مفتول العضلات، الذي يحافظ دومًا على تأنقه كان هيكلًا عظميًّا، برزت وجنتاه في وضوح، تبعثر شعر رأسه في إهمال، وغزا السواد أسفل عينيه بصورة ملحوظة تذكرك بمدمني المخدرات في الأفلام المصرية..

رفع رأسه وبعين دامعة:

- أفتقدتك كثيرًا يا صديقي.

هرعت إليه واحتضنته بقوة وقلت بإشفاق:

- ما الذي فعل بك هذا؟

- حكاية طويلة.

كنت أعلم أنه سيحكي لي ما حدث من زاويته والذي لم أعرف عنه شيئًا فيما يسمى بالزاوية العمياء فأطرقت سمعي وأخذ الحديث يسوقه.

*****

(١٣)

الزاوية العمياء

يحكيها فؤاد....

بعد انتهاء حكم اللعبة الغريب وانصرافكم تلك الليلة، كان التعب قد بلغ مني مبلغه، هرعت إلى غرفتي، حاولت النوم مرارًا وتكرارًا لكن التوتر والقلق من الأحداث تملكني فطار النوم وصار حلمًا بعيد المنال، أخذت أتقلب في فراشي محاولًا طرد الأفكار السلبية من رأسي بلا جدوى، شلال من الأفكار السيئة ينهمر في ذهني ويزلزل كياني، بمرور الوقت انهار عقلي وغفوت فيما يشبه الإغماء، قبل أن أستيقظ على وقع أقدام تتجول بأنحاء المنزل.

كان ذلك غريبًا لأنني كنت وحيدًا في ذلك اليوم، ولا أعتقد أنني أتوهم فما زلت أسمعها، الأصوات تصعد السلم في اتجاه الدور العلوي، تمشي بصعوبة وبطء كمن يجرجر قدميه وهي تحك بالأرض في صرير مخيف، ثم سمعت فتح أبواب الغرف تباعًا وكأن شخصًا يبحث عن شيء ما.

الأقدام تقترب من غرفتي، مسألة وقت لا أكثر قبل أن تصل لي.

كنت متوجسًا وخمنت أن ما يحدث لا يشي بالخير، آثرت الاختباء والبعد عن المواجهة ولهذا قمت مسرعًا باتجاه خزانة الملابس، دلفت إليها وأغلقتها بإحكام وأنا أراقب الغرفة من فتحات ضلفة الخزانة.

باب الغرفة يفتح ببطء أمام عيني، دخل أحدهم، حبست أنفاسي، أحاول اكتشاف ملامحه بلا جدوى ومع اقترابه هبت ريح باردة لا أعرف مصدرها، النافذة مغلقة، لا وجود لأي تيار هوائي مما جعل أسناني تصطك ببعضها، ارتجفت شفتاي العليا رغمًا عني بلا توقف ورائحة غريبة نتنة تعبق الغرفة كلها..

القادم الغامض يرتدي رداءً أسود داكن اللون، أخذ يجول في أنحاء الغرفة حتى اقترب من الخزانة التي أختبئ بداخلها، وقف فجأةً وقد أصبح قريبًا مني لدرجة كبيرة، كتمت أنفاسي ووضعت يدي على فمي، كان يوليني ظهره أو للدقة ظهرها، فذلك الشعر الأسود الفاحم لا بد أنه شعر امرأة. غير أنها ترتدي مسوحًا سوداء تشبه الأكفان، وتلطخ ثوبها برمال صفراء وأغبر شعرها وكأنها خرجت من المقبرة للتو.

كانت تتشمم الهواء كما تفعل كلاب الصيد المدربة، وتصدر زمجرة شرسة، تنفست بغضب، ثم أدارت وجهها تجاهي، اقتربت مني ببطء، على الضوء الشاحب القادم من الخارج استطعت تبين وجهها، شهقت في رعب وتشنجت يدي على فمي، ما رأيته لم يكن وجهًا، وإنما جمجمة، جمجمة لها عيون أعرفها، وهيئة أدركها حتى دون جلدها.

العيون عيون (رانيا)، الشعر المغبر شعر (رانيا)، الهيئة عرفتها هيئة (رانيا).

اقتربتْ من الفتحة الصغيرة التي أتلصص منها، ركزتْ عينها في عيني بشكل مباشر، رمقتني بنظرة غاضبة حانقة، وتصاعد الدخان من أنفها كبراد شاي على وشك الغليان، وتلك الرائحة النتنة تزكم أنفي.

توقف الوقت عند تلك اللحظة ودقات قلبي تتسارع في جنون فتكاد تخلعه من مكانه، قبل أن تدير وجهها وتنصرف، أسمع صوت جرجرة أقدامها تبتعد حتى اختفت.

ظللت في مكاني عاجزًا عن الحركة، آثرت البقاء بالخزانة خوفًا من عودتها، لا أدري كم مر من الوقت قبل أن تدخل الخادمة وهي تزفر في ضيق وتفتح النوافذ في تأفف قائلة:

- ما هذه الرائحة النتنة التي ضربت البيت كله؟؟ هل مات أحد هنا وتحللت جثته؟! كأنها رائحة الموت.

قالتها ولم تكن تدري أنها اقتربت كثيرًا من الحقيقة، طالعت السرير الفارغ وهي تنادي عليّ بصوت عال فلم أرد، سحبت المفارش لتنظيفها، تمهلتُ حتى غادرتْ ثم خرجتُ سريعًا، عاودتِ الدخول بعد دقائق وقد أحضرت معها إحدى عاملات النظافة وهي توجه لها الأوامر في صرامة:

- أضيفي الكثير من المنظفات لتلك البقع السوداء ثم....

انتبهت لوجودي فقالت في دهشة:

- صباح الخير يا (فؤاد) بيه.

حييتها بأن هززت رأسي.

قالت والدهشة ما زالت تعلو ملامحها وهي تشير إلى الأرضية بيدها:
- لا أدري ما الذي حدث هنا؟ تلك البقع السوداء اللزجة ظهرت في البيت كله ولا نعرف سببها.
تصنعت الدهشة وأنا أتطلع إلى حيث أشارت لتكمل في حيرة:
- مادة غريبة لها رائحة كرائحة الكبريت، إضافة إلى الرائحة النتنة المنتشرة.
- أية رائحة؟؟ لا أشم شيئًا.
ضربت صدرها وهي تقول في تعجب:
- ألف سلامة عليك يا أستاذ، رائحة البيت كالقبر.
ثم أردفت:
- على كلٍّ لا تقلق، سيزول ذلك كله في دقائق معدودة، سأصنع لك فنجانًا من القهوة لتستعيد نشاطك...
لم تنتظر إجابة، غادرت المكان وتركتني في حيرة أحاول فهم ما يحدث..
الزيارة الماضية من (رانيا) لم يكن القصد منها إلحاق الأذى بي، وإلا لكانت فعلت، لكنها غاضبة من شيء ما، رسالة تحذير لا أكثر، لكني لا أضمن الزيارة القادمة، هل لذلك التوقيت علاقة بتلك اللعبة الغريبة؟؟
لا أعتقد أنها مصادفة أن يحدث الأمر مباشرة بعد تلك الليلة، سأحرص على ألا تتكرر تلك الزيارة ثانية بأي ثمن.

كان (فؤاد) يواصل السرد وهو ينظر إلى (شريف):
- اتصلت بك أكثر من مرة لأستشيرك، لم ترد وكذا فعل (حسين) و(فوزي)، تفهمت ذلك بعدما حدث، توقعت أنكم ما زلتم ناقمين عليّ، لكنها فترة عصيبة على الجميع، فترة قصيرة وستعود المياه إلى مجاريها.
المهم، أخذت القرار مضطرًا بالاعتماد على نفسي، قررت أن أمشي باتجاهين، أولهما: أن أزيد الاهتمام بعائلة (رانيا) حتى يرتاح طيفها، وثانيهما: التواصل مع ذلك الشخص صاحب تلك اللعبة، ربما أفادني.

ظللت أبحث عن ذلك الكارت الشخصي الذي أعطاني إياه وأنا أتذكر ما حدث ذلك اليوم قبل أسبوع من الحادث.

- فترة عصيبة، مررت بالكثير من المشاكل والمصاعب في العمل، لا تتعجب، ولا تعتقد أن أصحاب الشركات والملايين لا يعانون من المشاكل المادية، بل بالعكس، مشاكلهم في كثير من الأحيان تكون ضخمة وصعبة، عكس الشخص العادي الذي تنحصر مشاكله في جنيهات قليلة يستطيع اقتراضها من أي شخص وكما يقولون في المثل (كل برغوث على مقدار دمه).

اعتدت الجلوس في أحد الكافيهات الراقية على الكورنيش، القريبة من الشاطئ، اتجهت إليه، الساعة تقترب من منتصف الليل حيث الهدوء والخلوة، جلست في أحد المقاعد البعيدة بركن مظلم.

اعتاد العاملون رؤيتي ويعرفون من أكون، قدم مسرعًا ذلك النادل الشاب وهو يضحك في وجهي في تكلف قائلًا:

- حمدًا لله على سلامتك يا سيد (فؤاد)، افتقدناك كثيرًا.

ابتسمت في إرهاق:

- سلمك الله يا (شوقي).

- يبدو أنك في حالة مزاجية سيئة.

- ضغط العمل.

كان يعرف أنني لا أحب الثرثرة كثيرًا، وأنني سريع الملل فقال:

- أعانك الله يا سيدي، هل تأمر بشيء تشربه؟؟ أم هل تريد شيئًا تأكله؟؟

- فقط قهوتي.

- كما تأمر يا سيدي.

كنت أشعر بإرهاق ذهني عاصف، خدر لذيذ يسري في جسدي، تلك الموسيقى الهادئة التي تسري في جنبات المقهى تدفعني دفعًا للاسترخاء، أرحت رأسي على الكرسي ورحت في غفوة سريعة..

رأيت فيما يرى النائم أنني أجلس في نفس الكرسي بذات المقهى، رفعت رأسي ووجدت ذلك الرجل الغريب يقف أمامي وهو يتطلع لي في برود، وقد بدت عيناه كجمرتين متقدتين...

انتبهت مفزوعًا من ذلك الحلم، فركت عينيّ، تمطعت في جلستي، ارتشفت رشفة من فنجان القهوة الذي أحضره النادل وَخَشِي من إيقاظي.

لمحت شخصًا يجلس قريبًا من الواجهة يتطلع إلى الخارج في صمت، لا أتذكر أنني رأيته عند دخولي، حضر أثناء تلك الغفوة القصيرة لا ريب.

شعرت بحركة خفيفة جانبي، وحرارة عجيبة تلفح قفاي، تلفتُّ تلقائيًا إلى مصدر تلك الحرارة، كلب أسود كبير الحجم يقف بجانبي تمامًا، انتصبت أذناه وهو يتطلع لي في تحفز، تعلم خوفي القديم من الكلاب وتدرك أنني أعاني منه منذ طفولتي، انتفضت بسرعة وانكمشت في مقعدي، تلفت حولي بحثًا عن (شوقي)، بصوت مرتعد حاولت جعله خفيضًا حتى لا أثير غضبه:

- شوقي... شوقي.

لم يقوَ صوتي على الخروج، كان يلهث مخرجًا لسانه بنظرة عدائية، قبل أن تلين ملامحه فجأة وأسمع صوت أحدهم:

- يبدو أن كلبي قد أزعجك.

لم أنظر إليه وظل بصري معلقًا بالكلب في توجس، توجه الكلب إليه في بساطة ووقف بجوار قدميه في خضوع فاعتدلت في جلستي وأنا أقول:

- لم يحدث شيء، إن....

لم أستطع إكمال الكلمة وأنا أتطلع إلى وجهه لأتبين تلك الملامح، الملامح المخيفة التي رأيتها بالحلم قبل قليل.

- "هل هناك خطب ما أيها السيد؟"

قالها وهو يتطلع إليّ في برود وعلى وجهه تلك النظرة الماكرة فأجبته:

- أنا فقط متعب قليلًا.

- أتأسف على ما فعله كلبي.

أطرقت رأسي إلى الأرض أتحاشى النظر إليه وبصوت خرج مختنقًا:

- لا داعي للأسف، غفوت قليلًا فلم أشعر باقترابه، هذا ما أفزعني.

- أستمحيك عذرًا...

قالها قبل أن يهز رأسه محييًا، وينطلق خارجًا يتبعه كلبه.

- شوقي... شوقي...

قلتها وأنا أصرخ في غضب.

أتى مسرعًا وقد لاحظ نبرتي:

- تحت أمرك سيد (فؤاد).

- أين كنت حين ناديتك؟ وكيف تسمحون للكلاب بالدخول إلى هنا؟

تطلع إليّ في دهشة وهو يهز كتفه متعجبًا:

- أي كلاب يا سيدي؟!

- الكلب الأسود الكبير، مع الرجل الذي كان يجلس هنا.

أشرت إلى مكان جلوس الرجل قرب النافذة فاعتلته الدهشة وهو يقول:

- لم يكن هناك أحد!

- ما الذي تقوله؟

- أنت فقط يا سيدي..!!

ازدادت حدة نبرتي وأنا أصيح:

- كيف تقول هذا؟! كان يجلس هناك، رأيته بعيني.

- ربما اختلط الأمر عليك يا سيدي.

- أنا لا أتوهم، ومن المشين أن تنظر إلي بتلك الطريقة.

تبسم بصورة مصطنعة حتى يرضيني وكأنه يخاطب شخصًا معتوهًا أو طفلًا صغيرًا:

- أعدك ألا يتكرر هذا الأمر ثانية.

أشرت إليه بالانصراف في ضيق، أخرجت ورقة من فئة المائة جنيه، وضعتها على المنضدة وغادرت.

دلفت إلى سيارتي دون أن أدير محركها، أسندت رأسي إلى الكرسي، سمعت طرقًا على الزجاج، كان الرجل الغامض الذي قابلته منذ لحظات، خفضت الزجاج فقال:

- أعتذر منك ثانية عن فعلة كلبي.

ابتسمت متصنعًا في توتر:

- الأمر بسيط.

أخرج بطاقة تعارف من جيبه، أعطاها لي فأمسكتها دون أن أنظر إليها وهو يقول:

- أنا طبيب نفسي، لاحظت شرودك، فهل تسمح لي بالتطفل؟

أجبته في اقتضاب:

- مشاكل العمل كما تعرف.

- لن أعطلك كثيرًا، يبدو أنك في عجلة من أمرك، لكن عليك التنفيس عن نفسك من آن لآخر والابتعاد عن ضغط العمل.

- معك حق.

- اسمح لي بمساعدتك في هذا...

قالها وهو يخرج من جيبه (فلاشة) صغيرة ويتابع:

- تحتوي على شيء سيفيدك.

- ما هو؟

- لعبة إلكترونية.

قطبت جبيني متعجبًا:

- لعبة؟!

ابتسم في برود:

- نعم لعبة، لكنها مختلفة عن أي لعبة تعرفها.

أردت أن أنهي اللقاء سريعًا فالتقطتها منه وهو يتابع شرح التعليمات ويعطيني ورقة القسم قبل أن ينتهي ويغادر...

كنت أتذكر ذلك الحوار وأنا أفتش عن الكارت في جيبي كالمجنون، عثرت عليه واتصلت بالرقم المدون لأسمع تلك الرسالة المسجلة بأن الرقم غير متاح، عاودت الاتصال مرارًا بلا فائدة.

قررت تأجيل لقائي به والانتقال إلى الخطوة التالية والذهاب لزيارة أهل (رانيا)...

السماء ملبدة بالغيوم، رذاذ المطر الخفيف يضرب زجاج السيارة بنعومة كبكاء رضيع يتدلل محتاجًا إلى صدر أمه، فتحت النوافذ لأستمتع بتلك الرائحة المميزة للبحر وهي تداعب أنفي وأنا أملأ صدري من الهواء المنعش وأزفره بقوة محاولًا تخفيف ذلك التوتر الذي أشعر به..

اقتربت من الوصول إلى المنطقة التي يقطن بها أهل (رانيا)، التقطتْ أنفي رائحة كريهة أعرفها، التفتّ إلى الكرسي بجانبي بشكل تلقائي.

كانت تجلس هناك تمامًا وهي تنظر إلى الطريق أمامها، وقد اتخذت نفس الهيئة المرعبة التي زارتني بها في المرة الأخيرة، وقبل أن أدرك ما يحدث نظرت إلي في عيني، خيل لي أنها تفعل شيئًا غريبًا... كانت تبكي..

بلا مقدمات فتحت فمها لتصرخ، صرخة جعلتني أضع يدي لأغطي أذني، خرج من فمها سرب من حشرات تشبه الفراشات، انتشرت في السيارة برمتها، ضغطت الفرامل بقوة، صرخت الإطارات بعنف وقد ارتفعت الأبواق حولي من كل مكان، توقفت بشكل مفاجئ في منتصف الطريق الذي تعطل، أصوات سباب وصراخ واتهامات بالجنون تأتي من الخارج، اتطلع في بلاهة إلى المقعد الجانبي الفارغ، انفتح الباب بقوة وأحدهم يهز كتفي بعنف قبل أن يتوقف ويمسك رأسي بإشفاق وهو يقول:

- هل أنت بخير أيها السيد؟

نظرت إليه دون أن أجيبه، أخرج رأسه وهو يخاطب المارة والسائقين الذين تجمعوا:

- الرجل به علة.

قال أحدهم:

- ضغطه عالٍ.

وقال الآخر:

- غيبوبة سكر أو أزمة قلبية.

استمر الجمع بإلقاء التكهنات، اقترب واحد أو اثنان يسألانني عن تاريخي المرضي، لم أستطع الرد فتعاون الناس لحملي ووضعي بالخلف، قبل أن يقود أحدهم السيارة إلى مستشفى قريب..

اقترب طبيب شاب وهو يسلط كشافًا على عيني قبل أن يقول:

- يعاني من صدمة نفسية، لا بد من مخاطبة أهله، يحتاج إلى المكوث بالمستشفى لبعض الوقت.

ظللت تحت الملاحظة لمدة يومين، امتنعت فيهما عن الكلام تمامًا.

شبح (رانيا) أحب صحبتي وكان يزورني بشكل يومي ما تسبب في معاناة العاملين بالتنظيف لاضطرارهم إلى إزالة سائل أسود لزج كريه الرائحة من الأرضيات والغرف، مع انتشار الشائعات عن تلك المرأة المتشحة بالسواد التي تجوب أروقة المستشفى بعد منتصف الليل.

تحاملت على نفسي وغادرت المستشفى رغم نصائح الأطباء بالبقاء، أردت الذهاب لأهلها عل ذلك يحرمني من زيارتها اليومية ويطفئ بعضًا من سخطها علي.

قدت مباشرة واقتربت من المنطقة الشعبية التي كانت تقطن بها، اضطررت لترك السيارة بالشارع الخارجي وترجلت ماشيًا، ابتلعتني الشوارع القديمة وأنا أتجول بين الأزقة والحارات، يحيطني العديد من البنايات المتهالكة وقد اكتست النواصي والشوارع بالعديد من الباعة الجائلين بعرباتهم العتيقة وفرشاتهم المتواضعة، أتحرك في توجس وعيون الأهالي البسطاء التي أضناها الشقاء وغلبها البؤس تتطلع إليّ في تحفز أو هكذا ظننت.

كنت قريبًا من العنوان حسبما وصفه لي ساعي الشركة، توقفت عند ورشة حدادة أسفل المنزل للتأكيد، اقتربت من أحدهم الذي أمسك بمرزبة في يده يطرق بها على سيخ من الحديد، سلمت عليه وسألته:

- هذا بيت رقم تسعة؟

دون أن ينظر إلي سألني وهو يضع سيجارة في طرف شفتيه:

- من تريد؟؟

- عم (ماهر).

توقف عن الطرق، تفحصني من رأسي حتى أخمص قدمي، أخذ نفسًا عميقًا ونفث الدخان في وجهي قائلًا:

- الدور الثاني.

شكرته ودخلت إلى البوابة الحديدية الملطخة، بطرف عيني لمحته يراقبني حتى غبت في المدخل المظلم، تحسست طريقي بصعوبة، صعدت الدرج، تفاديت بأعجوبة ذاك الكلب البلدي الذي ينام في نهاية الدرج، رمقني في كسل وتابع نومه، وصلت إلى الطابق المطلوب وطرقت الباب.

انفتح الباب، ألجمت المفاجأة لساني .....

فقد كانت (رانيا) تقف أمامي بشحمها ولحمها، ظللت أحدق بها وقد وقف شعر رأسي وهي تتطلع لي في تعجب فيما ارتفع صوت من الداخل:

- من بالباب يا هناء؟؟

- لا أعرف يا أمي.

غمغمت وأنا أخاطب نفسي:

- هناء؟!

كنت أفكر في التطابق الشكلي والجسدي بين (رانيا) وأختها، قبل أن تأتي سيدة خمسينية ببقايا جمال ريفي ذابل لتقف بجوارها لتنتشلني من صدمتي قائلة:

- هل تريد شيئًا أيها السيد؟؟

أفقت من شرودي، عرّفتها بنفسي، بشت وهشت في وجهي ودعتني للدخول، قضيت بعض الوقت أستعلم عن أحوالهم وأسمع شكواهم، شكرتني على الأموال التي أرسلها لمساعدتهم ثم أعطيتها مبلغًا من المال بعدما قضيت الوقت الطويل أقنعها بأخذه، لم تقبل إلا بعد أن شددت عليها وأخبرتها أنني في منزلة ولد من أولادها، وعدتها بتكرار زيارتي وأعلمتها أن عليها الاتصال بي إذا أرادت المساعدة من أي نوع...

مرت بعدها ثلاث ليالٍ لم أحظَ بزيارة من (رانيا) وشبحها كما توقعت، في اليوم الرابع بعد استيقاظي فوجئت برائحة الموت تلك، وقد انتشر عاملو النظافة بالمنزل يجاهدون حثيثًا لإزالة تلك المادة السوداء اللزجة كريهة الرائحة من الغرف..

لماذا عادت؟

ما الذي أخطأت بفعله ثانية؟

لماذا أشعر بتلك الآلام في جسدي؟ وما تلك العلامات الزرقاء على ظهري؟

لم تنتهِ اللعنة كما كنت أظن!!

تذكرت رقم الطبيب النفسي صاحب اللعبة فاتصلت به في يأس.

كنت كمن يتعلق بقشة أثناء الغرق، لكن الهاتف مغلق كالمعتاد.

تابع (فؤاد) حديثه:

- اتصلت بكم عدة مرات، أخبرتني والدة (حسين) بسفره لأسوان، ساءت حالتي النفسية، انقطعت عن متابعة أعمالي حتى وردني اتصال من رقم لا أعرفه وبعدما أجبت قال:

- السيد (فؤاد)؟

- أنا هو...

قلتها وأنا أحاول استرجاع ذلك الصوت المألوف، لم يثرثر كثيرًا وإنما قال في اقتضاب:

- العاشرة مساء غدًا، في العنوان المسجل بالرسالة التي ستصلك الآن.

سمعت صوت وصول رسالة على هاتفي، أغلق الخط بلا كلمة إضافية، تذكرت الصوت وأدركت أنه صوت الشخص الذي أعطاني اللعبة والذي حاولت جاهدًا الوصول إليه..

كان يتكلم بثقة، لم يترك لي فرصة للمناقشة وسيل من الأسئلة الكثيرة تعصف بذهني وها أنا ذا في طريقي للقاهرة لمقابلة ذلك الرجل.

وصلت إلى المكان الذي أرسله لي ذلك الرجل بمنطقة تسمي المريوطية ثم....

كان (فؤاد) يواصل سرد ما حدث حينما انتبه (شريف) فجأة ليوقفه عن الكلام وقد انتفض من مكانه واتسعت عيناه وهو يقول:

- هل قلت المريوطية؟
- نعم فعلت.
- فيلا الجنزوري.
- ماذا تقول؟!
- دكتور (برهان)!

كانت المفاجأة من نصيب (فؤاد) هذه المرة الذي قال في استنكار:

- كيف عرفت؟؟

تحرك (شريف) في الغرفة جيئة وذهابًا، وضع يده خلف ظهره وتحرك كنمر حبيس وقد ارتفع حاجباه في تفكير، مرت دقيقة كاملة وقد بدأت الخيوط تتجمع أمامه ليقترب منه (فؤاد) مندهشًا وهو يكرر سؤاله:

- كيف عرفت أنه هو؟
- قصة طويلة، الوقت ليس مناسبًا لذكرها، أكمل ما حدث معك ولنؤجل حكايتي لوقت لاحق.

مط (فؤاد) شفتيه في تعجب:

- قابلته في بيته، طلب مني سماع الأحداث كلها فأخبرته بها كاملة.

هز (شريف) رأسه متفهمًا فأكمل (فؤاد):

- تكلم معي كلامًا غريبًا لم أفهمه، لم أكن مرتاحًا لوجودي وحيدًا معه، تظاهرت بالفهم وخرجت لا ألوي على شيء وحدث ما حدث بعدها وجئتك حتى تفيدني.

ابتسم (شريف) بسخرية يتخللها مرارة، حاول أن لا يظهرها وهو يقول لنفسه: "يبدو أنني أصبحت رجل الشفرات وفتى الأحاجي الأول"، ثم نفض الفكرة عن رأسه قائلًا:

- أخبرني بتفاصيل كلامه، لا تغفل أي تفصيلة ولو كانت صغيرة.

- سأحاول أن أنقل الحوار إليك على لسانه وكأنه يتكلم.

تابع (فؤاد):

- انتهيت من سرد ما حدث للدكتور (برهان).

بعينين باردتين خاليتين من أي تعبير قال:

- الحياة كالطريق، مفترقات من الدروب، طريقك فريد لا يشبه طريق أحد غيرك، في بعض الأحيان نضطر إلى اختيار طريق وعر لنمضي فيه، لو كان الأمر باختيارك لفضلت الطريق الممهد بلا شك، لكنك ستشرب الدواء رغم مرارته لأنه سبيلك الوحيد للنجاة إذا أردت أن توقف معاناتك.

لا أفهم ما يرمي إليه فهززت رأسي كأنني أعي ما يقوله فأكمل:

- عند الاختيار ثمة فئات ثلاث لا رابع لها، فئة تحافظ على ما تراه صوابًا حتى لو أدى ذلك للإضرار بها وتبذل الغالي والنفيس لتثبت على طريق المبادئ والأخلاق، وفئة ثانية تحافظ على الأخلاق والثوابت طالما لم تتعارض مع مصالحها حتى تمتحن، ساعتها يتم تغليب المصلحة على أي قيمة أو ثابت، مثل قوم (طالوت) حينما أمرهم ملكهم باتباع أوامر الله بعدم الشرب من النهر فلم يستطيعوا الثبات وشربوا إلا قليلًا منهم، وفئة ثالثة، واضحة منذ البداية بلا تجميل أو مواربة اختارت طريق الشهوات وأصرت عليه، فلا رادع يردعها ولا

أخلاق أو دين أو تربية تقومها وتضعها على الطريق، كالحيوانات تعيش قانون الغابة حيث البقاء للأقوى، العالم مليء بالفئات الثلاثة، وعليك اختيار طريقك....

انتهى كلامه، ابتسامتي المصطنعة المتكلفة تفضح بلاهتي وتفضحني بأنني لم أفهم شيئًا من هذا الهراء الذي يقوله، لذا حافظت على التزامي الصمت، نظر إلي وكأنه يقرأ أفكاري ثم ضاقت عينيه بنظرة شيطانية مخيفة وهو يقول بصوت كالفحيح:

- تعلم قصة الراهب برصيصا؟؟

- لم أسمع بها من قبل.

- ستوضح لك ما الذي أعنيه، وعندما تكون مستعدًا ستجدني في انتظارك، بعد ثلاث ليال.

وبلهجة ماكرة أردف:

- لا تقلق، أنا أفي بعهدي دائمًا.

ثم قام من مكانه وكأنه يدعوني للذهاب، الحقيقة أنني كنت منقبض النفس ولذا تحمست لفكرة الذهاب بلا كلمة إضافية، شكرته على وقته، خرجت من بيته في عجالة كأنني أهرب من وكر شيطان.

عدت إلى المنزل والفضول يلتهمني، استخدمت الإنترنت وبحثت عن قصة برصيصا هذا الذي ذكره أو مهما يكن اسمه، أحاول فهم الرابط بينه وبين الألغاز التي تكلم فيها عن الاختيار، وما علاقة ذلك كله بقصتي!!، وكيف سيكون ذلك حلًّا لمشكلتي؟!

بمجهود يسير توصلت إلى ما كان يتكلم عنه.

برصيصا راهب بني إسرائيل الأول ونجمها المشار إليه بالبنان، أعجوبة زمانه في العبادة، تلهج الألسنة بسمعته الطيبة والحديث عن ورعه الذي لا يضاهي، في تلك الأثناء أحتاج بعض التجار للسفر، أربعة من الرجال، هناك معضلة لا بد من حلها قبل أي شيء؛ أين ستبقى أختهم الصغيرة؟ لن يتركوها وحدها ولا يأمنون عليها.

أشار عليهم غير واحد أن يودعوها في كنف أحد المؤتمنين، وبالطبع لا يوجد أفضل من برصيصا، رفض الرجل بصرامة وشدد على أنه لا وقت لديه ولن يستطيع الاعتناء بها لكنهم ألحوا عليه وبذلوا له الرجاء، وافق على مضض فأقاموا لها بيتًا بجوار النهر قريبًا من صومعته حتى يتسنى له الاطمئنان عليها من آن لآخر.

ذات يوم.. خرج ليجلب الماء من النهر، الفتاة تغتسل في الجدول وقد تعرت بالكامل مطمئنة أن لا وجود لمن يراها في ذلك المكان المنعزل، لمحها برصيصا فغض بصره وتوقف في مكانه كأن صاعقة ضربته، قرر الرجوع وتحرك خطوة أو خطوتين لكن نفسه غلبته، اختبأ خلف شجرة وأطال النظر يطالع مفاتن الفتاة وقد انهارت مقاومته وذهبت به سهام الرغبة أيما مذهب..

رجع إلى صومعته بقلب غير الذي ذهب به، تذكر ربه فانزعج في بادئ الأمر وبدأ يلوم نفسه بصوت عال بعدما اكتنفه شعور بالندم، دقائق ورجعت الذكرى تطارده وكانت تلك اللحظة كافية ليدخل الشيطان إليه ويجري كالدماء في عروقه، تسرب داخله وتغلغل بعقله، نسي العبادة والصلاة بل وزهد الأكل والشراب والمشاهد تتكرر في عقله بلا توقف، شعرها المنسدل على كتفها البض وشفتاها الصغيرتان المنمقتان ومفاتنها التي سلبت لبه وتركته صريعًا لخيلاته..

حاول المقاومة وطرد الفكرة لكنه لم يستطع، تسلم الشيطان زمام الأمور ورتب له الخطوات بعدها وما هي إلا أيام إلا وكانت الفتاة الساذجة والعابد السابق واقعين في نهر السعادة المزيف.

البيت قريب من البيت وعيون القرية نائمة، والشيطان يطرب في سعادة ويسكن قلب الحبيبين اللذين راق لهما تلك الحميمية.

بعد أيام.. شعرت المرأة أن هناك ما يسوء ولم يمضِ وقت طويل حتى أدركا أن هناك جنينًا يكبر في رحمها، انفجع الحبيبان بما حدث وأسقط في أيديهما.

جن جنون برصيصا فهي مسألة وقت لا أكثر، سيعرف الجميع وتضيع هيبته وينكلون به بلا شك، لن يدع ذلك يحدث وعليه التحرك سريعًا، وضع خطته

ودبر أمره ليلًا، استدرج الفتاة إلى منطقة جبلية وأجهز عليها، دفن الجثة تحت شجرة وأحرق ملابسها..

رجع الأخوة من سفرهم فذرف دموع التماسيح، أقسم أنها غادرت على حين غفلة إلى جهة لا يعلمها وربما تعرفت على شاب وغواها فهربت معه، أظهر ندمه على تفريطه وبالغ في الادعاء حتى صدقوه..

لم يشكوا للحظة، كيف لا وهو من هو، النجم العالي صاحب العبادة والورع، طافوا البلد كله في كل مكان للبحث عن أختهم دون جدوى.

أسقط في أيديهم وتملكهم اليأس وحاولوا نسيان ما حدث.

أتى الشيطان لواحد منهم حال نومه وأراه رؤيا بالتفاصيل الكاملة للقصة، دلهم على مكان دفنها فذهبوا وأخرجوها، قبضوا على برصيصا يريدون قتله، حبسوه حتى ينظروا في أمره.

جلس يبكي في ندم وهو لا يدري ما الذي ينبغي عليه فعله، هل يعترف ويطلب الصفح؟ أم يتوب إلى الله ويرتضي بما سيفعلونه جزاء فعلته..

كان غارقًا في التفكير حينما لمح ذلك الرجل الغريب يدلف إلى مكانه ويقترب منه. طالعه في استنكار متسائلًا بصوت متهدج من البكاء:

- من أنت أيها الغريب؟

التزم الرجل الصمت فأردف برصيصا:

- كيف دخلت إلى هنا؟

بصوت هامس:

- لا تشغل بالك بتلك التساؤلات التي لا طائل منها، اعلم أنني صديقك فقط لا غير وقادم لإنقاذك.

- إنقاذي؟! كيف؟

- سأحتفظ بالطريقة لنفسي لكني أردت أن أسألك أولًا.

- تسألني عن ماذا؟

- عن استعدادك لدفع الثمن.

بدا عليه عدم الفهم:

- أي ثمن؟

تجاهل الغريب الرد عليه وقال:

- القوم مجتمعون بالخارج عن بكرة أبيهم، ينوون جعلك عبرة بطول البلاد وعرضها حتى لا يتجرأ أحد على فعل ما فعلت مرة ثانية.

امتقع وجه برصيصا وابتلع ريقه بصعوبة:

- وما الذي يجب عليّ فعله؟

- تقبل دفع الثمن كما أخبرتك.

- أنا طوع أمرك أيها النبيل.

- ستفعل أي شيء؟

- أي شيء، سأقبل قدمك ليل نهار.

- لا أريد تقبيل قدمي لكني سأطلب منك شيئًا قريبًا من ذلك.

كغريق يتعلق بقشة:

- شرطك مجاب قبل أن تشرطه طالما ستخرجني من هنا.

تظاهر بالتفكير وبرصيصا يتلظى بالانتظار قبل أن يقول الغريب بصوت كالفحيح:

- اسجد لي ومجدني.

ساد الصمت بعد تلك الكلمة وبرصيصا زائغ النظرات يطالع الغريب الذي يبتسم في تشفٍ وقد عقد يديه خلف ظهره، لم يجد من الأمر بدًّا فنفذ طلبه بعدما شدد عليه أنه سيتوسط عند الملك لينقذه، كان يائسًا ففعل لكن الشيطان لم يفِ بعهده وتركه يقتل وقد ذكر القرآن الكريم تلك القصة في قوله تعالى:

﴿ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ ﴾ [الحشر: ١٦]

كان (شريف) يستمع إليه في اهتمام وهو يكمل:

- انتهت مهلة الثلاث ليال، فهمت مغزى كلامه ولن أرضخ لذلك اللعين.

قال صدقًا وهو كذوب إنني مسئول عن الاختيار، اخترت أنني لن أصحح الخطأ بخطأ أكبر منه.

- قرارك صحيح يا صديقي وتفكيرك منطقي.

- اعلم هذا لكنه يضغط على بشدة...

قالها وهو يضع رأسه بين يديه ودمعته تنحدر على وجنتيه، مسحها بسرعة ليخفيها، ربت (شريف) على كتفه محاولًا تهدئته:

- سيكون كل شيء على ما يرام.

مضت دقيقة كاملة من الصمت فتركه يخرج ما بصدره وأردف:

- أكمل قصتك.

- منذ يومين وردني اتصال من أحد العاملين بالشركة لدى أبي، أخبرني بأنه شعر بألم مفاجئ ونقلوه إلى المستشفى، دخل بعدها مباشرة في غيبوبة حار فيها الأطباء ولا يجدون لها سببًا.

- لما توقعت أن له يدًا بالأمر؟

- سمعوا صراخ أبي قبل أن يدخلوا عليه المكتب ليجدوه فاقدًا للوعي وتلك المادة اللزجة السوداء كريهة الرائحة تتناثر في أرضية المكتب.

توقف عن الكلام وعم الصمت قبل أن يقول بصوت متهدج وهو ينظر إلى شريف:

- لا يمكنني تنفيذ ما يطلبه، لن أكون خادمًا للشيطان.

ثم علا نحيبه وأردف:

- ولن أترك أبي يموت.

هززته من كتفيه في حزم:

- لن تنفذ ما يطلبه فلديك الاختيار الذي ستسأل عنه أمام الله، ولن يموت أبوك فالله وحده من يقرر هذا، ثم إننا لن نقف مكتوفي الأيدي حتى وإن كان ذلك البرهان هو إبليس نفسه.

تطلع إليّ بعين دامعة مستنجدة فقلت في قوة:

- سنواجهه يا صديقي مهما حدث والله معنا.

*****

(١٤)

المجهول

انطلقنا مع خيوط النهار الأولى، كنت أجلس بجوار (سامح) فيما استقر (فؤاد) بالمقعد الخلفي وهو يفرك يده في توتر وقد ألصق وجهه على الزجاج يتطلع إلى الطريق بالخارج في شرود.

حتى اللحظة الحالية لم أكن أملك أي خطة عما ينبغي فعله، سنزور ذلك البرهان ونرى ما ستسفر عليه الأمور، التزمت الصمت حتى لا يظهر توتري وكذا فعل (سامح) وقد أخذ ينظر إلي بين الحين والآخر يحاول سبر أغواري، وصلنا إلى مكان الفيلا التي قمنا بزيارتها سابقًا لكنني شعرت أن الأمور تغيرت قليلًا، المنزل قديم يبدو مهجورًا مخالفًا تمامًا لذلك الذي تواجدنا فيه منذ أيام، ترجلت من السيارة يتبعني (سامح) وقد علت الدهشة وجهه فسألته:

- هل أخطأنا العنوان؟!

- لا أظن ذلك.

اقترب من البوابة القديمة المتهالكة، وقد وضعت عليها سلسلة حديدية صدئة، طرقها عدة مرات فيما ترجل (فؤاد) من السيارة وقد فغر فاه متعجبًا وهو يقول في استنكار:

- كنت هنا منذ أيام؟!

في تلك اللحظة سمعنا صوتًا أجش:

- ماذا تريدون أيها السادة؟

التفتنا إلى مصدر الصوت لنجد شيخًا كبير السن، نحيفًا، تميل بشرته إلى السمرة، يرتدي جلبابًا واسعًا وقد تعمم بتلك العمامة المميزة لأهل الوجه القبلي وأمسك بعصا غليظة في يده يتوكأ عليها

- السلام عليكم أيها العم.

- عليكم السلام..

قالها وهو يرمقنا في ريبة ويستند على عصاه ممسكًا بها بكلتا يديه.

- قدمنا لزيارة الدكتور (برهان).

بدا كأنه يسمع الاسم للمرة الأولى فردده بصوت خفيض:

- برهان؟! من يكون؟

تبادلنا النظرات ثم سألته:

- أليست هذه (فيلا الجنزوري)؟

- نعم إنها هي.

- جئنا في وقت سابق، وزرنا شخصًا يدعى الدكتور (برهان) هنا.

- يا ولدي أنا خفير على تلك الفيلا منذ الستينيات، لم يسكنها أحد منذ وفاة الست (كريمة) وهجرة أولادها إلى كندا.

ثم توقف عن الكلام وكأنه يتذكر شيئًا قائلًا:

- هل يستطيع أحدكم وصف ذلك الرجل؟

بدأنا ذكر صفاته ووصف الشكل الداخلي للفيلا قبل أن يمتقع وجهه وهو يصيح في هلع:

- "احفظنا يا رب ده إحنا غلابة".

أردف:

- أنتم تصفون الباشا الكبير (برهان باشا الجنزوري).

- إنه هو.

ردد في خفوت:

- لكنه مات منذ ثمانين عامًا، تلك الأوصاف المذكورة تطابق الصورة الكبيرة المعلقة بالردهة، أحفظ ملامحها منذ كنت أنظفها منذ زمن بعيد.

ألجمت المفاجأة ألسنتنا فتبادلنا مع الرجل حديثًا قصيرًا وشكرناه وانطلقنا عائدين.

الأمر منطقي وكان لا بد لي أن أتوقعه وأن أدرك ذلك.

كنت ساذجًا حينما تخيلت أن شخصًا مثله من السهل مقابلته والعثور عليه، التزم (فؤاد) الصمت ولم ينبس ببنت شفة منذ شرعنا في طريق عودتنا إلى الإسكندرية، أخشى عليه من تلك الصدمة ويخالجني قلق من رد فعله الغريب

فقد دخل في نوبة من النوم العميق وعلا صوت شخيره...

تطلع (سامح) إليه بالمرآة في إشفاق:

- صديقك يعاني من صدمة كبيرة.

- كلنا نعاني من هذا الكابوس الذي يبدو أنه لا نهاية له.

- اتصلت بالدكتور (محمدي) وسألته عن ذلك المدعو (برهان)، أخبرني أنه كان منتدبًا من إحدى الجامعات الأوروبية وأنهى انتدابه فجأة وسافر.

- "وماذا سنفعل مع هذا المسكين ومع أبيه؟"

قلتها في إرهاق.

- نتبع الطريق الأول كما فعلنا مع (حسين).

- كيف؟؟

- تسبب باختياره في جلب الأذى لتلك الفتاة، وجلب الشقاء لأهلها.

- إذًا؟؟

- يسعد أهلها فيكفر عن خطئه، ويسكن تلك الروح الغاضبة.

تبسمت في سخرية:

- بهذه البساطة؟؟

أجابني في حدة:

- نعم، بهذه البساطة.

- لا أعتقد ذلك.

- الحل في كثير من الأحيان يكون أبسط مما يبدو عليه، تستطيع رؤيته ببعض المنطقية والتفكير خارج الصندوق النمطي، من أفسد شيئًا فعليه إصلاحه أو على الأقل إصلاح آثاره.

شرد ذهني وأنا أفكر فيما قاله، غفوت مرة أو اثنتين حتى وصلنا إلى بيتي فصعدت لإحضار بعض أغراضي بعدما قررت الذهاب للإقامة مع (فؤاد) في بيته.

بعد أسبوع:

تحسن ملحوظ في الحالة الصحية لوالد (فؤاد)، بعدما عمل بنصيحة (سامح) وواظب على زيارة أهل (رانيا) بشكل يومي ومتابعة أبيها المريض، أنا سعيد لاختياره الحر بالزواج من شقيقة (رانيا)، ولن أخبر أحدًا أنني ضغطت عليه وأقنعته بذلك، ليدخل السرور إلى ذلك البيت ثانية بعدما كان سببًا لإدخال الشقاء فيه، الحق أن (سامح) كان محقًّا حينما اقترح ذلك الحل البديهي البسيط، اقتراح أثبت نجاعته، جنبنا اللجوء إلى ذلك الدكتور غريب الأطوار (برهان)، رنين الهاتف انتشلني من الاستغراق في التفكير.

طالعت الشاشة وكان المتصل رقمًا مجهولًا فأجبته قائلًا:

- السلام عليكم.

- كيف حالك يا (شريف)؟

انتابتني قشعريرة باردة حينما أدركت هوية محدثي الذي أكمل:

- مفاجأة، أليس كذلك؟

- أريد أن أفهم؟

- لا تضِع الوقت في الهراء الذي لا طائل منه، الثانية لها ثمن.

تنبهت حواسي:

- من ضحيتك هذه المرة؟

ضحك ضحكة شيطانية وأردف:

- أنت ذكي أيها الفتى.

لم أسعد لإطرائه وقلت في حدة:

- كلي آذان مصغية.

- أحييك على إجادتك وتعاونك مع صديقك (فؤاد) ومن قبله (حسين)، أشحذ عقلك في الدور على خامسكم.

انتبهت في تعجب قائلًا:

- سامح؟!

أنهى الاتصال بلا كلمة إضافية، أسرعت بمهاتفة (سامح) لأطمئن عليه، تليفونه كان مغلقًا، قررت الذهاب إلى مقر عمله وأنا أدعو الله أن يكون بخير رغم يقيني أن شيئًا ما قد حدث له، دلفت إلى المشرحة حيث يعمل فوجدت بعض النسوة المتشحات بالسواد وميزت فيهن بعض أهله وهن يبكين في حرقة، لم أسألهن ولم يلاحظن وجودي فاتجهت مباشرة أحاول الولوج إلى الداخل لكن العمال قاموا بمنعي بعدما أخبروني بالخبر المؤسف، الخبر كالصاعقة التي نزلت على رأسي والتي رفض عقلي تصديقها.

مات سامح!!

إذا كان قد مات فما مغزى اتصال ذلك البرهان المشئوم في ذلك التوقيت؟!

هناك شيء لا أفهمه ويجب أن أصل إليه سريعًا.

اتصلت بفؤاد الذي حضر مهرولًا، استخدم نفوذه ونفوذ أبيه في مساعدتنا على الدخول إلى المشرحة وإلقاء النظرة الأخيرة على وجه (سامح).

كنت مستاءً جدًّا مما حدث وشعور بالذنب يعتليني، أدخلته إلى تلك اللعنة وكنت سببًا في هلاكه.

دلفت إلى الداخل، المكان بارد، رائحة الفورمالين تعبق الأجواء، على وجه مساعده (عيد) نظرة من التبرم والضيق، وخمنت أنه حزينٌ على فقدان رفيقه وزميله.

خبرتي السابقة في تلك اللعنة أعطتني بعض القسوة في القلب، أتعجب أنني ما زلت متماسكًا بلا انهيار حتى الآن بعد كل ما حدث، حتى إنني لم أهلع أو أفزع حين رأيت وجهه قد تحول إلى اللون الأزرق وقد تضرخ بالدماء، سالت دموعي بلا حيلة فسقطت قطراتها على وجهه لكن (عيد) لم يمهلنا أقترب وهو يبعدنا في غلظة قائلًا:

- يكفي هذا.

أمسك الدرج المعدني وشرع في إدخال الجثة، كان على وشك إغلاق الباب حينما سمعت شهقة قوية.

التفت إلى (فؤاد) ورأيت اتساع عينيه فعلمت أنه سمعها، أمسكت بيد (عيد) كي أوقفه، أزحته جانبًا وفتحت الدرج بقوة وأنا أعاين الجثة، عينه كانت مفتوحة مثبتة على نقطة ما بسقف الغرفة.

تراجع (عيد) خطوة للخلف وهو يستعيذ بالله، فيما ارتفع صوت (فؤاد) بالصياح في هيستيريا وفتح الباب ينادي الأطباء الذين هرعوا وهم يفحصونه ثم نقلوه على العربة حتى يضعوه على التنفس الاصطناعي.

حدث كل شيء بسرعة، سقطت على الأرض أنتحب في تشنج فيما كان القط الأسود يقف بأحد الأركان يرمقني بنظرة خاوية قبل أن يغادر مختفيًا.

أفاق (سامح) من غيبوبته فيما يشبه المعجزة، طلب رؤيتي بشكل عاجل وأصر على ذلك رغم أن حالته لا تزال حرجة.

دخلت عليه فباغتني بلا مقدمات:

- ذلك الشيطان (برهان) كان محقًّا، أنا خامسكم ولست بريئًا.

وضعت يدي على كتفه مربتًا وأنا أطلب منه أن يهدأ فلم يأبَه بمقولتي وابتلع ريقه في صعوبة ليكمل:

- قال إن الرسائل تأتينا عن طريق الأحلام، وهو أيضًا محق في هذا.

توقف لالتقاط أنفاسه وتابع:

- سأحكي لك القصة كاملة، بداية من الحلم الذي تكرر في الأيام الماضية، لكن لا تحكم عليّ، فلست بهذا السوء.

هزرت رأسي متفهمًا؛ فبدأ يحكي حلمه....

(قصة سامح):

أقف وحيدًا في صحراء بلا نهاية.. ظلمة شديدة تلف الأفق..

صفير الرياح يصم الآذان..

ما الذي أفعله هنا؟؟، هل مت وبعثت؟! من أنا؟

ذهني مشوش تمامًا، لا أستطيع تذكر من أنا، ولا أدري شيئًا عن هذا المكان، أرى نورًا يلوح في الأفق، انشرح صدري لذلك ثم ما لبث أن انقبض عندما تبينت أن ما أراه ليس نورًا. بل مشاعل نارية يحملها أشخاص كثر.

النار تحيط بي من كل اتجاه، تقترب في سرعة وتحفز لا ينذران بخير،

لا أرى وجوه حاملي الشعل رغم اقترابهم،

أسمع أصواتهم كالزمجرة وأشعر بحرارة أنفاسهم وروائحهم الغريبة تزكم أنفي، اقترب مني كبيرهم، عرفت ذلك من صمتهم احترامًا حين دنا مني.

على ضوء النار رأيت وجهه وهالني ما رأيت، البشاعة كما يجب أن تكون..

رأس كرأس الذئب، أسود اللون بشعر طويل وجسد كجسد البشر مغطى تمامًا بشعر كثيف كالفراء، مد يده كثيفة الشعر تجاهي، وأمسكني من رقبتي في قوة، حاولت الإفلات بلا جدوى ليقذف بي إلى الأرض، أسقط على ظهري، أحاول النهوض فتهجم الجثث على جسدي وتمنعني من ذلك، أحاول تخليص نفسي فلا أستطيع وذلك الكائن يقف ناظرًا إليّ مبتسمًا في تشفٍّ، فتحت فمي لأصرخ طلبًا للنجدة لكن صوتي خرج مختنقًا، كشر عن أنيابه واحمرت عيناه وقفز منقضًا عليّ والشدق يسيل من فمه، اقترب وصار فوق رأسي ولعابه يتساقط على وجهي وهو يزوم في غضب، أشم أنفاسه النتنة وهي تخرج من منخاره كالدخان، تراجع خطوتين ثم أجبرني رهط الجثث الذين يمسكون بي على القيام منتصبًا، كانوا ينظرون جميعًا إلى مكان واحد وكأن على رؤوسهم الطير، التفت معهم نحو تلة قريبة وهم يطالعون تلك المرأة التي تتشح بالسواد أعلاها، أحنوا رؤوسهم في احترام وهي ترفع عصا بيدها وتشير إليهم فجثوا على ركبهم وهم يجبرونني على أن أفعل مثلهم.

رفعت رأسي فوجدتها تنظر إلي بعيون جاحظة ووجه أزرق، حينها فقط أفقت من نومي...

كنت نائمًا في سريري غارق ببحر من العرق، ألهث بلا توقف، أفكر في ذعر بذلك الحلم الذي تكرر كثيرًا في الفترة الأخيرة.

الآلام المحيطة برقبتي من آثار اليد التي أمسكت بي تنبض كخيط من اللهب وتحرقني، نهضت بصعوبة ألتمس بعض الماء ووقفت أمام المرآة متطلعًا لموضع الألم فوجدت علامة يده الممسكة برقبتي واضحة تمامًا.

جرس الهاتف انتزعني من ألمي وحيرتي.

تبًّا لذلك الهاتف..

لا أدري ما حاجة شخص مثلي لذلك الهاتف المزعج، سيزورك في أحلامك.

سيصل إليك في كل مكان حتى في دورة المياه، يرحم الله أيامًا كانت هناك خصوصية بلا إزعاج.

كان المتصل (عيد)... مساعدي في المشرحة، ذلك الثرثار الأحمق الذي لا يصمت، ما الذي يدعوه ليتصل بي الآن!! لا بد أنه أمر عاجل ومهم.

اعتدلت في جلستي وأنا أجيب متصنعًا النوم حتى لا يطيل:

- أهلًا يا عيد.

أتاني صوته في ارتباك ملحوظ:

- أعتذر عن إزعاجك في هذا الوقت المبكر يا دكتور، الموضوع مهم.

أجبته وما زال الكسل يخيم على صوتي:

- خيرًا يا (عيد)، ماذا حدث؟

مباشرة وبصوت مرتعش:

- تفتيش من الوزارة.

- ممن؟!!

- الإدارة المركزية يا دكتور.

- وما المشكلة في ذلك؟

- المشكلة أن لدينا عجزًا.
انتفضت من مكاني وأنا أقول بغضب:
- كيف حدث هذا؟!
- أوراق القطعتين الأخيرتين بهما بعض المشكلات.
- ما هذا الهراء؟! قل لي إنك تمزح.
- إنها الحقيقة، للأسف.
بصوت هادر:
- أيها الأحمق.
لم يرد فأكملت بعصبية:
- ستتسبب بسجننا أيها المأفون.
- لم أحسب أنهم سيفتشون في العطلات الرسمية.
اتسعت عيناي في غضب وأنا أصرخ:
- أخطأت بالاعتماد على سفيه مثلك.
لم أنتظر منه ردًّا وعاجلته:
- حاول إلهاءهم بأي شيء، أنا في الطريق إليك.
ارتديت ثيابي على عجل، وفي رأسي مئات من السيناريوهات والاحتمالات.
مضت دقيقتان قبل أن يرن الهاتف مرة ثانية وطالعت على الشاشة اسم (عيد)، أمسكت بالهاتف في لهفة وتوتر وأنا أقول:
- أنا معك.
كنت أتوقع مصيبة جديدة كما اعتدت منه لكن أتاني صوته في ارتياح:
- رحلت اللجنة.
- بهذه السرعة؟!
- قدموا للتفتيش في المستشفى، ولم تكن المشرحة من أولوياتهم.
ضغطت على أسناني غضبًا وهو يكمل:
- حقك عليا يا....

أغلقت سماعة الهاتف في وجهه وتنفست الصعداء وأنا أجلس على أريكتي محاولًا استجماع شتات نفسي.

في الرابعة عصرًا كنت أدلف إلى المشرحة، استقبلني (عيد) مبتسمًا في زهو وانتصار قائلًا:

- تمت بحمد الله.

أجبته بغضب مكتوم دون أن أنظر إليه:

- لا يمكن قبول ما حدث، كنت ستقضي على مستقبلي وسمعتي بسبب غبائك.

- سامحني يا سيدي، خطأ لن يتكرر.

- بالطبع لن يتكرر، ستعاقب في وقتها، لن أترك لك تلك الملفات المهمة مرة أخرى.

باستجداء قال:

- فرصة أخيرة.

رمقته بطرف عيني ولم أرد فتابع:

- لي سؤال مهم يا سيدي يشغل عقلي منذ زارتنا تلك اللجنة.

- ما هو؟

- أليس هناك من يحمينا من داخل الوزارة؟

تلفت حولي في حذر وهمست له:

- نعم.

- لِمَ لمْ يبلغونا بذلك التفتيش؟

- أولًا لأنهم كانوا قادمين للمستشفى وليس لنا، وثانيًا هذه اللجنة قدمت من الإدارة المركزية دون إخطار الوزارة وهذا أمر نادر.

- لكنهم لا ب.........

قاطعته في اقتضاب: يكفي ذلك القدر من الكلام عما حدث، معدتي لا تزال معتلة من أخبارك التي تشبه وجهك.

- ما رأيك لو قصصت عليك آخر النكات حتى أغير نفسيتك؟

كانت تلك واحدة من المزايا القليلة التي يتمتع بها (عيد)، وهي أنه خفيف الظل صاحب دعابة حاضرة، ورغم دقة الموقف إلا أني تبسمت فقال وهو يظهر أسنانه الحديدية:

- طالما ضحكت فقد سامحتني.

- دعك من هذا الهراء وأكمل عملك.

- طوع أمرك يا سيدي.

تحرك خطوة أو خطوتين ثم رجع مترددًا:

- هناك شيء أرغب في تذكيرك به.

ارتشفت رشفة من فنجان القهوة خاصتي وأجبته:

- لا تقلق فلم أنسَ، اذهب إلى ذلك العرس الذي تريد الذهاب إليه، سأسهر مكانك حتى تعود، لكن أنهِ ما بيدك أولًا.

استهل وجهه وهو يدعو لي وأنهى عمله سريعًا ثم ودعني وغادر فانهمكت في عمل مهامي اليومية.

كانت الساعة تقترب من العاشرة مساءً حينما قمت في تكاسل متجهًا لعمل كوب من الشاي، وضعت الكوب قريبًا مستندا برأسي على حافة الكرسي واضعًا قدمي على المكتب القابع أمامي، أغمضت عينيّ مستمعًا ومستمتعًا وصوت الست يأتي من المذياع، أردد معها في تثاؤب:

"الحب كله حبيته فيه، الحب كله"

لا أدري متى غفوت؟ لكني كنت أقف في صحراء بلا نهاية والحلم السابق يتكرر بكل تفاصيله، لكن هذه المرة لم ينتهِ كسابقه بل اكتمل..

كنت أقف في تلك الصحراء أمام تلك المرأة، ثم تغيرت الصورة إلى أرض (المشرحة)، ثمة قوة دفعتني فوقعت على ظهري حينما فوجئت بأبواب الثلاجات تفتح دفعة واحدة في عنف وقد خرجت منها الجثث وهي تزحف تجاهي، جثة

تقترب بلا رأس وأخرى بلا عيون وأخرى بلا قدمين وثالثة بلا أذنين ورابعة وخامسة وسادسة.

تبًّا لهذا الكابوس.

متى سينتهي؟

الجثث تقترب مني زحفًا ببطء.

لا أقاوم ولا أتحرك منتظرا نهاية ذلك الكابوس، لكنه لا ينتهي.

زاد رعبي وبلغ مني الخوف مبلغه، هجموا عليّ وأمسكوا بكل جزء من أجزاء جسدي.

أحسست بآلام رهيبة في قدمي، نظرت إليها فوجدتها مقطوعة والدم يقطر منها وإحدى الجثث تهجم على أذني وتقضمها، وأخرى تفتح فمي وتشد لساني فلا أستطيع الصراخ.

كان هذا آخر ما رأيته قبل أن تهجم إحداها على عيني وتفقأها

لم أعد أرى..

لم أعد أسمع..

لا أستطيع الحركة والآلام تضرب جسدي كله.

الآن صرت تعرف ما حدث..

نعم أفقت من الحلم، نعم وجدت الآلام في أذني، وخيط رفيع من الدم يتدفق منها،

نعم قدمي مكانها لكني لا أشعر بها،

لا تسألني فأنا نفسي لا أدري ما الذي يحدث معي.

هل هو حقيقي أم حلم؟!

هل هناك أرض مشتركة يدخل فيها الحلم مع الحقيقة بهذا الوضوح؟!

فركت عينيّ وأنا أضرب جبهتي قائلًا بصوت مسموع لأحفز نفسي:

- لا عليك أيها البطل، كل ذلك أوهامٌ ليس أكثر.

كررتها مرتين أو ثلاثة وحينما رفعت رأسي ارتعدت فرائصي.

كانت كل أبواب الثلاجات أمامي مفتوحة على مصراعيها.

حاولت النهوض فلم تستجب قدماي

تعرف ذلك الشعور حينما لا تستطيع الهرب.

حينما تعطي الأمر لحواسك فلا تستجيب.

اختبرت ذلك سابقًا في الحلم ولكن ها هو ذا يتحقق، هذه المرة أنا لا أحلم فهذا صوت الست يأتي من المذياع

"أنت روحي.. وكل عمري.. ونور حياتي.. يا حياتي"

جلست في مكاني يائسًا ومستسلمًا..

سيقضي هذا الحلم عليّ، أدرك ذلك جيدًا،

مرت عشر دقائق وأنا أجلس مستسلمًا ثم...

لم يحدث شيء

انتظرت عشر دقائق أخرى فلم يحدث شيء، تحاملت على نفسي وأنا أقف مترنحًا مغلقًا الأبواب واحدًا تلو الآخر، تبقى بابان..

أمشي بصعوبة والوهن يضرب جسدي، بئسًا لتلك الأبواب اللعينة.

ستظل تفتح وأغلقها طول الليل، أنا أعرف ذلك.

تبًا لهذه الليلة الطويلة، متى ستنتهي؟!

سأغلق البابين الأخيرين سريعًا وأرجع لأرتمي على ذلك الكرسي اللعين لكنني لن أنام..

اقتربت منهم حينما لمحت شيئًا، هناك بابٌ مغلقٌ لم يفتح مع باقي الأبواب،

لماذا لم يفتح هذا الباب معهم؟!

اقتربت من الباب متعجبًا حينها حدث أمر غريب، انفتح الباب بعنف، ابتعدت سريعًا حينما سمعت صوتًا أعرفه جيدًا. أعرف هذه الزمجرة جيدًا وأعرف هذه اليد كثيفة الشعر التي خرجت من الثلاجة، أطلقت لساقي العنان والغريب أنها استجابت لي.

خرجت من المشرحة وأنا أركض في جنون بلا توقف، أسمع صوت (عزت) عامل الأمن ينادي عليّ متسائلًا عن سر هرولتي فلا ألتفت له وأنا أواصل الركض باتجاه الباب الرئيسي.

لفحني هواء الشارع البارد وعبرت الشارع المزدحم بلا وعي.

ارتفعت أبواق التنبيه من السيارات المسرعة، اسمع الصرخات وصرير العجلات وأضواء السيارات تضرب في عيني ثم...... طاخ

الأرض تميد بي وأسمع أحدهم يقول:

- هلموا نساعد الرجل وندخله المستشفى.

ثم لا شيء ....

انقطع الصوت وانقطعت الصورة، وها أنا ذا أقف في المشرحة،

ما الذي أتى بي إلى هنا؟

ذاك (عيد) يقف مع أناس يرتدون الملابس الرسمية.

تبًّا... يبدو أن اللجنة أتت من جديد وذلك الأحمق لن يهدأ حتى يزج بنا في السجن، لن أتركك أيها المأفون بعدما تغادر اللجنة، لا أدري ما الذي سأفعله بك لكني سألقنك درسًا لن تنساه، أعلم أن هذا ليس وقته لكنني لن أصفح عنك تلك المرة حتى لو بكيت دمًا.

اقتربت من(عيد) وأنا أساله بصوت خفيض حتى لا يسمعه أحد:

- من هؤلاء؟

لم يبدُ عليه أنه سمعني ولم يلتفت فقلت في حزم:

- هل عادت اللجنة مرة أخرى؟

لم يرد هذه المرة أيضًا، هناك شيء لا أفهمه في (عيد)، لماذا يبدو عليه الحزن؟ ولماذا لا يجيبني؟

رفعت صوتي أكثر لكنه أيضًا لم يرد.

كان هذا حينما أمسك أحدهم بأحد الدفاتر وهو يسجل فيه شيئًا، اقتربت منه فلم يلحظ وجودي، نظرت إليه فإذا بورقة مكتوب عليها شهادة وفاة وهو يسجل اسم المتوفي، اتسعت عيناي في رعب وأنا أقرأ الاسم.

(سامح عبد السلام)!! إنه أنا!!

أنا لم أمت، ما الذي تفعلونه يا قوم؟ يكفي هذا فليس الأمر بالمضحك.

اقتربت من (عيد) وأنا أصرخ:

- أخبرهم أنني هنا ولم أمت، كيف أموت وأنا أقف وسطكم أسمع ما تسمعون وأرى ما تبصرون.

حاولت جذبه من يده لتنبيهه فانسابت يدي خلال جسده كانسياب الماء، حينها فقط أصابني الانهيار، جلست في الركن أبكي وانتحب فيما أنهى الرجال عملهم وتركوا (عيد) وذهبوا.

اقترب (عيد) من أحد الأدراج وهو يفتحه فطالعت عيني جثة أعرفها، إنها جثتي وهو ينظر إليها في تأثر قائلًا:

- سأفتقدك يا دكتور (سامح) لكن اعذرني فيما سوف أفعله بك، ستنتقل أعضاؤك لتفيد غيرك كما كنت تبرر لي ذلك، جاء الوقت كي تشرب من نفس الكأس.

صحت في انهيار لكن صوتي لم يخرج ولم يسمعه غيري:

- ما الذي ستفعله يا (عيد)، أنا صديقك الذي كان يأكل معك ويشرب، من كان يغطي على تقصيرك ويقف معك في محنتك، لم تعرف النعمة أو تتذوق طعم الهناء إلا لما عملت معي.

لم أنتظر كثيرًا فقد أخرج هاتفه هو يخابر أحدهم:

- دكتور (أمجد)، كيف حالك يا دكتور؟

دكتور (أمجد)!! أعرف هذا الاسم ولا يبدو وقعه غريبًا على مسامعي.

تذكرت.....تذكرت.... ذلك المادي الحقير الذي يشتري منا الجثث ليبيعها كسلعة لمن يدفع، لكن لماذا يتصل به (عيد)؟

أتاني الجواب سريعًا وهو يقول مخاطبًا ذلك الأمجد:

- لدي قطعة طازجة من اللحم ستبهرك.

قال له شيئًا فأجابه:

- من نصف ساعة وتم عمل التقرير، لا تتأخر حتى ننتهي قبل أن ينتبه إلينا أحد.

أغلق الهاتف وعلى وجهه ابتسامة المظفر:

- مع السلامة يا من كنت صديقي.

قالها وأغلق الثلاجة وحينها فقط رأيت الأبواب تفتح والجثث تزحف نحوي..

انتهى (سامح) من سرد ما حدث بعدما اعترف لصديقه بتورطه في تجارة الأعضاء، أطرق (شريف) إلى الأرض في حزن ليبادره (سامح):

- مخطئ يا صديقي، أستحق اللعن لكني كنت مضطرًا.

لم ينتظر إجابة (شريف) وتابع:

- ابنتي مريضة بالفشل الكلوي، وكنت أريد الإنفاق على علاجها ويستحيل أن أنتظر العلاج على نفقة الدولة فما كانت لتتحمل، أنت تعرفني وتعرف أخلاقي لكن الظروف كانت أقوى ولم أشأ ترك ابنتي تموت.

- لقد أنجاك الله وحصلت على فرصة أخرى، فما الذي تنوي فعله حين تخرج من هنا؟

- لن أعود أبدًا.

- تقسم على ذلك؟

- أقسم.

- ذلك الرجل يتلاعب بنا.

- هذا واضح.

نهض (شريف) واقترب من صديقه وهو يهمس في أذنه:

- آن الأوان أن نبادر بالهجوم.

- إنه شيطان، لا يمكنك مهاجمته.

- سأنهي تلك اللعنة الليلة.

وبلهجة جدية أردف:

- أو أموت وأنا أحاول.

ثم اعتدل وهو يغمغم في قوة وعيناه تلمع في إصرار:

- أعدك بهذا.

غادر الغرفة مسرعًا، التقى (فؤاد) الذي كان منتظرًا بالخارج فحكى له ما حدث قبل أن يقول في حزم:

- سأغلق ذلك الملف الليلة إلى الأبد إن شاء الله.

- كيف؟

- أظنني فهمت اللعبة وحانت ساعة النهاية.

- ما الذي علينا فعله؟

- علينا مواجهته.

- ماذا تقول؟!

- أعفيك من مصاحبتي.

في عتاب:

- ما الذي تقوله، بدأناها معًا وسننهيها معًا، أطلعني على خطتك وما يدور في رأسك.

- سأجيبك في الطريق.

- إلى أين؟

- إلى فيلا برهان.

ارتسمت الدهشة على وجه (فؤاد) قائلًا:

- إنه ليس هناك!

- إنه حولنا في كل مكان، يعرف خطواتنا ليتلاعب بنا، لكنني سأضربه في المكان الذي ينتمي إليه.

- حسمت أمرك ولن يمكنني منعك.
- أكرر ثانية أنني أعفيك من مصاحبتي.
- أنا معك يا صديقي وليكن ما يكون.

تحركت السيارة باتجاه فيلا الدكتور (برهان)، لاحت الفيلا من بعيد وقد غرقت في الظلام الدامس وزادتها الأشجار العتيقة حولها رهبة وغموضًا..

أوقفا السيارة في الشارع الجانبي الصغير، ترجلا منها وهما يقتربان من الجزء الأقصر من السور.

نظر (فؤاد) إلى (شريف) وهو يغمز بعينه ويقول:

- كالأيام الخوالي.

ابتسم (شريف) بصعوبة وهو يخفي توتره مرددًا:

- نعم كالأيام الخوالي.

بدآ يتسلقان السور وقد وضع كل منهما مصباحًا يدويًّا في حقيبة صغيرة علقاها على ظهريهما، هبطا داخل الفيلا وهما يتحركان في خفة بالحديقة الخارجية، اقتربا من الباب الذي كان مغلقًا وقاما بدورة كاملة حول المكان حتى وجدا الباب الخلفي المخصص للعاملين، كان متهالكًا ففتحاه بضربة كتف واحدة ثم تجاوزا المطبخ وهما يدلفان إلى الردهة.

أضاء كلّ منهما مصباحه و(فؤاد) يهمس:

- ما الذي نبحث عنه؟
- صورته الكبيرة التي قال الحارس إنها معلقة بالردهة.

لم يستمر بحثهما طويلًا ولم يكن العثور عليها صعبًا فهي في مكان واضح قبالة الدرج الأول تتوسط الفيلا، ارتقى (شريف) درجات السلم الأوسط حتى صار أمامها.

كانت صورة برهان تبتسم تلك الابتسامة الماكرة خاصته.

جثا (شريف) على ركبتيه وهو يخاطبها وكأنه يخاطب شخصًا عاقلًا:

- ها قد عدنا يا دكتور، أنا (شريف) وذلك الذي يقف بالأسفل (فؤاد)، أعتقد أنك لست بحاجة لنذكرك بهذا.

باستخفاف وبلهجة ساخرة تابع:

- تعرف أننا قادمون، أين واجب الضيافة يا رجل؟! هل اكتفيت من اللعب أم أن هناك المزيد؟! الحقيقة أقول لك إننا اكتفينا ولتفعل أقصى ما تستطيع فعله، ماذا تريد أكثر من ذلك؟

تريد محاسبتنا وعقابنا؟

هل تسول لك نفسك التلاعب بنا بدعوى أخطائنا؟

من أنت لتخول نفسك قاضيًا على بشري؟

أنت لست إلهًا أيها الضعيف، لست إلهًا.

كان يتوجه بكلامه إلى اللوحة في قوة وخيل إليه أن ابتسامتها اختفت وحلت محلها نظرة غاضبة لكنه أكمل:

- انتهينا من لعبتك ونستعين بالله عليك.

انتهى من تلك الجملة، سمع صوتًا يأتي من الأعلى، رفع عينه حيث الصوت، وجد ذلك الكلب الأسود ينظر إليه في غضب بعينين كجمرتين وهو يزوم استعدادًا للانقضاض، لم يجفل ولم يتحرك وإنما تجاهله كأنه غير موجود وتابع التحدث إلى اللوحة قائلًا في قوة:

- تعتقد أنك ستخيفني بهذا أيها المسكين؟

ثم أغلق عينيه وكأنه لا يراه وتابع وهو يتذكر الكلمات التي تعلمها من الشيخ (حمدان):

- أعوذ بكلمات الله التامة من شر ما خلق وذرأ وبرأ ومن شر ما ينزل من السماء ومن شر ما يعرج فيها ومن شر فتن الليل والنهار.

كان يقولها بقوة لا يعرف مصدرها لكنه كان ثابتًا جدًّا.

فتح عينيه يتطلع إلى الصورة فوجد ألوانها وملامحها تختفي لتضحى كلوحة سريالية بلا معالم، حانت منه التفاتة إلى حيث كان يقف ذلك الكلب الأسود فلم يجده..

في تلك اللحظة أضيئت أنوار البيت كلها دفعة واحدة، البهو نظيف والأثاث بوضع ممتاز وكأنهما في البيت حين زيارتهما الأولى له، انتبهت حواسه واعتدل في توتر وهو يسمع وقع خطوات منتظمة قادمة من اتجاه غرفة المكتب بالطابق الأرضي.

على طرف الرواق كان واقفًا يبتسم في سماجة بتلك الابتسامة المستفزة، خادمه الذي استقبلهما في المرة الأولى.

التفت إليه (شريف) وهو يخاطبه بلهجة ساخرة:

- أين سيدك أيها الخادم التعس؟

لا يعرف سر تلك القوة التي يتكلم بها ولا ذلك الثبات العجيب الذي يتلبسه.

أجاب الخادم وما زال على ابتسامته:

- تعرضك للضغوط أثر على عقلك.

تحرك (شريف) خطوتين هابطًا وما زالت نظرة التحدي على وجهه قائلًا:

- كشفت لعبة سيدك وحانت المواجهة.

قهقه الخادم بصوت عال وفي سخرية قال:

- أنت تواجه سيدي؟!

ثم أردف:

- أحمق ضعيف.

كان (شريف) قد انتهى من هبوط الدرج، اقترب منه في تؤدة وقد لمح بطرف عينه صديقه (فؤاد) يقترب من خلفه في بطء محاولًا الهجوم عليه، فطن لخطة (فؤاد) فتوقف عن الحركة وهو يخاطبه ليشغله:

- لن أواجهه لكنني أريد أن أفهم.

- تفهم ماذا؟

- لماذا نحن؟

- وبماذا سيفيدك الفهم؟! لن تخرج من هنا على أية حال.

في تلك اللحظة هجم عليه (فؤاد) من الخلف في سرعة وتجهز (شريف) لمشاركته الهجوم، لكنّ يدي (فؤاد) انسابت خلاله وكأنه هواء واختفى بسرعة مخلفًا وراءه دخانًا أسود اللون، أغلقت الأضواء مرة أخرى وغرق المنزل في الظلام، سمعا حشرجة يعرفانها ويعرفان صاحبتها..

ارتفع الصوت من الأروقة حولهما وهو يقترب بسرعة، هرولا صاعدين الدرج إلى الطابق الثاني، لم ينظرا خلفهما لكن الصوت كان يقترب في تتابع مخيف، دلفا إلى الغرفة الأولى وأغلقا الباب خلفهما، الغرفة مظلمة تمامًا وثمة أشياء أسفل أقدامهما يتعثران بها في طريقهما.

أضيئت الغرفة فظهرت ملامحها وقد اعتلت الدهشة محياهما، دهشة مصدرها أنهما كانا يقفان في غرفة (فؤاد)، بكل تفاصيلها الدقيقة وألوانها وأثاثها.

خاطبه (فؤاد) بصوت مرتعش:

- إنها غرفتي!

- إنها تشبهها وليست هي، مجرد وهم.

في تلك اللحظة ارتفع صوت شيء يجرجر على الأرض.

امتقع وجه (فؤاد) وهو يصيح:

- رانيا.... إنها رانيا.

اقترب منه (شريف) محاولًا تهدئته بلا جدوى وهو يكرر الاسم في ذعر ثم ما لبث أن انتفض وهو يخور في رعب ويشير إلى شيء ما خلف ظهر صديقه، هبت ريح قوية باردة حيث يشير وتلتها رائحة عفنة زكمت أنفهما، لم يلتفت (شريف) إلى حيث يشير وتابع محاولاته لتهدئته فيما كان لا يزال يطالع ما أفزعه حيث أشار.

سدد (شريف) لكمة ضعيفة لصديقه حتى يسترعى انتباهه لكنه لم يأبه فسدد واحدة أقوى جعلته يتأوه.

نظر إليه بعيون زائغة فصرخ (شريف) بصوت عال:

- انظر في عيني وركز معي، إنه يلاعبنا بمخاوفنا.

تلعثمت كلمات (فؤاد) وبدا على وشك البكاء فأكمل (شريف):

- أفق من أوهامك واستعن بالله واستعذ من الشيطان.

كان مترددًا بين النظر إلى صديقه الذي يخاطبه والنظر إلى الشيء القابع خلف ظهره وما زال صوت جرجرته يدنو منهما حتى بات قريبًا لدرجة أن (شريف) شعر باصطدام أنفاسه خلفه.

دفع (فؤاد) بعيدًا بقوة ليقع أرضًا واستدار بسرعة بفعل الادرينالين يواجهه، رجع خطوة حتى بات بعيدًا عنها، الهيئة بشعة لكنه لم يفزع، وإنما شعر بالأسى تجاهها وقد بدت عيونها في ذلك الهيكل العظمي عيون حزينة متألمة.....

الدخان يتصاعد من أنفها كبراد شاي على وشك الغليان.

قربت أنفها تتشممه كما تفعل الكلاب فلم يتحرك.

بدا عليها الانزعاج وخيل إليه أنه لمح ما يشبه الدمعة تتدلى من مقلتيها قبل أن تغادر تاركة خيطًا أسودَ من مادة لزجة غريبة..

حاول إيقاظ (فؤاد) الذي فقد وعيه من هول الموقف، نجح في ذلك وهو يساعده على الحركة، غادرا الغرفة واتجها إلى الدرج هابطين إلى البهو في توجس حتى وصلا أمام تلك اللوحة السابقة للدكتور (برهان)، أخرج (شريف) قداحة كان يحتفظ بها في حقيبة الظهر خاصته وزجاجة صغيرة احتفظ فيها ببعض الكيروسين فسكبها على اللوحة وأضرم النار فيها وهو يتطلع إليها وهي تحترق في تشفٍّ...

صرخات غاضبة تتعالى لكنه وقف مستمعًا لها في زهو وقد أطربه وقعها كأنها سيمفونية موسيقية عظيمة حتى إنها أنسته أين يقف وما الذي يفعله في ذلك المكان.

انتشلته يد (فؤاد) القوية من نشوته وجذبه قائلًا بفزع:

- لنسرع خارجين فالبيت يحترق.

انتبه إلى ألسنة اللهب المتصاعدة من الغرف بالطابق الثاني وقد بدأت الأشياء في التساقط والانهيار حولهما فهرولا خارجين لا يلويان على شيء وتسلقا السور وأسرعا بالابتعاد بالسيارة دون أن ينظرا خلفهما، وشعور بالراحة يغمرهما لطوي تلك الصفحة المخيفة من حياتهما.

لن أشغلك بما حدث بعد ذلك من الأمور الروتينية التي لا تعنيك، آن الأوان أن أنال قسطًا من الراحة حتى أنسى تلك التجربة المريرة وتلك الأحداث الغريبة، يبدو أن المشكلة في شخصي ويبدو أن الأرواح والأطياف وممالك الجان تحبني وتنجذب لي ولذلك سأبتعد قليلًا..

الهاتف مغلق...
بمفردي...
في (مطروح)..
لن يعرف أحد مكاني..... ولن أخبر أحدًا..

توقف (شريف) عن سرد قصته وهو يترك القلم والورقة من يده ويضعهما على المنضدة الموضوعة بجانبه، ثم دس جسده أسفل الغطاء لينام وقد غلبته النشوة... نشوة جعلته يغفل عن تلك العيون التي تراقبه وهي تلمع في الظلام ببريق عجيب... عجيب جدًا.

النهاية

*****

المُحتَوياتُ

(١) الكاهن........................ ٧

(٢) اللعبة ١٣

(٣) السؤال........................ ٢٣

(٤) فراج........................ ٢٩

(٥) المقبرة........................ ٣٩

(٦) اختفاء ٥١

(٧) القط الأسود........................ ٥٩

(٨) القلادة........................ ٦٥

(٩) مجبورة........................ ٧٩

(١٠) برهان........................ ٨٩

(١١) المكان الأول.......................... ١٠٣
(١٢) طريق النهاية.......................... ١٠٩
(١٣) الزاوية العمياء.......................... ١٢٥
(١٤) المجهول.................................. ١٤٥